إبراهيم الكُوني

روح البُعد المفقود

مكتبة نوميديا 89
Telegram@ Numidia_Library

إبراهيم الكوني

رُوح البُعْد المفقود

سيرة رؤيوية

دار سؤال؟

الطبعة الأولى، 2018
عدد الصفحات: 144
القياس: 14.5 × 21.5
تصميم الغلاف: محمد النبهان

جميع حقوق النشر والترجمة محفوظة
دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 740437 1 00961

www.darsoual.com @darsouall2014
dar_souaal@outlook.com Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-46-9

إن دار سؤال للنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء مؤلّفه، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء الدار.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

«كنت ولا أزال شديد الرّغبةِ في الكتابة عمّا لم يكتب عنه أحد منذ الثلاثينات وهو: **الجمال المحض**»

دستويفسكي

«السطوة التي وُلدَت فيكم
فصرعتم بها البشر
وزعزعتم بها الجبال..»

ريغفيدا

المندَلة الأولى

النشيد (1 ـ 37 ـ 12)

إلى خازن ذاكرة الجيل:

زياد علي

لماذا نعتنق دين الوردة، ونحترف استنبات الوردة؟ هل يكفي أن نجيب فنقول: لكي نروّض أنفسنا على الكفّ عن قطف الوردة؟

الكفّ عن قطف الوردة يردعنا عن اقتراف الخطيئة في حقّ الوردة، لأننا، عندما نقطف الوردة، لا نكتفي بأن نفقد الوردة، ولكننا نقتل الوردة! لا نكتفي بأن نقتل الوردة بقتل الوردة، ولكننا نقتل في أنفسنا الوردة التي تسكننا.

1

لا أدري لماذا صار لي استنبات النّبوت هاجساً طاردني منذ الطفولة، ربّما بسبب نشأتي في بيئة صحراوية عارية، النبات فيها دائماً لقية نفيسة. ولم تتح لي الفرصة كي أجرّب حظّي مع الزروع إلّا عندما تنكّرت لنا الصحراء فنزلنا الواحات مع نهاية خمسينيات القرن الفاني، ليقع اختياري على الفول السوداني ليكون أول بذرة استودعتها رحم الأرض علّها تشفي غليلي في الفوز بنبتةٍ خضراء تصلح نواةً لبستان، تنتج ثماراً فتيّة، كانت في يقيني دوماً أحجيةً عصيّة.

كنت أستجلب للبذار المياه من البئر.

كنت، بعد عودتي من المدرسة، أذهب لأستجلب للبذار حاجتها من المياه من البئر الذي لا يبعد عن بيتنا مسافة طويلة، وأروي الأرض الظمأى، المحروقة بجحيم الدهور، فتتجرّع المياه بنهم، مطلقةً حشرجات شبيهةٍ بفحيح الجمر عندما يُغمر بالغمر.

كنتُ أتفقّدها كل يوم، بل مراراً في اليوم، متلهّفاً لميلاد الحلم المنتظر من بطن الأرض، إلى أن جاء اليوم الذي اكتشفت فيه طلوع أول لعاع.

كان ذلك عيداً حقيقياً. كان بمثابة عيد ميلادي في الواقع، ظنّاً منّي أن الميلاد هو نهاية المطاف الذي سيحقق لي الخلاص، ولم أتخيّل أنها بداية لرحلة قصاص. فاللعاع، وإن أينع مراراً، لم ينجب ثماراً أبداً. وعبثاً حاولت طوال ثلاث سنوات متتالية الوصول بالنبات إلى طور الثمار، فكنت أجني الفشل بدل الثمار في كل مرة، دون أن أدرك السبب. وعلّ أكثر ما استفزّ فضولي هو عمّا إذا كان داء مثل العقم يمكن أن يكون علّة النبات أيضاً مثله مثل الإنسان، دون أن يكون توقي في اللهفة لالتقام فاكهة النبتة، ولكن في التحدّي المبهم في أن أرى نتاجاً يتوّج عشباً نفختُ فيه من روحي، وسقيته من أنفاسي.

بعد الإنتقال إلى حاضرة جنوب الوطن انقطعت علاقتي بعالم النبوت، ولكني ما لبثت أن جربت استعادة علاقتي بالطبيعة، التي أضحت فردوسي الضائع منذ هجرنا الصحراء، من خلال تربية الغزلان الذين كان الحاج أحمد، صديق الأب، يأتي لي بهم في زياراته للحاضرة، فكنت أتركهم يسرحون في الحديقة المواجهة للبيت الموروث عن عائلة

فرنسية اضطرّت للإلتحاق بوطنها بعد إجلاء المحتلّ عن مناطق الجنوب التي كانت خاضعة للإستعمار الفرنسي حتى منتصف خمسينيات القرن، ولم تتمكّن من الإنسحاب إلّا بعد إعلان إستقلال البلاد بما يربو على الخمسة أعوام.

ولكن الغزلان الأبيّة، التي لا تهفو لشيء كما تهفو للحرية، كانت تستغفلني لتفرّ منّي كلّ مرة. وكنت أحزن لفرارها لا لأني فقدتها (لأني اكتشفتُ تالياً أنّي كنت أتضامن معها في فرارها خفيةً، ربما لأني أحسدها على استعادتها لحريّتها بالعودة إلى رحاب صحرائي الكبرى) ولكن لخوفي عليها من بلايا السبيل حيث ترابط عجلات السيارات وجشع السفهاء، فيلحقوا بها ضرراً قبل أن تدرك برّ الأمان.

بعدها توغّلت شمالاً فازدادت الهوّة بيني وبين الطبيعة عمقاً، حيث يحرص الناس هنا أن يتّخذوا لأنفسهم بيوتاً معلّقةً في برزخ بين السماء والأرض، ليزدادوا بذلك اغتراباً عن أحضان أمّهم الأرض، كأنّهم يتعالون عليها خوفاً من أن تستعيدهم إلى الجوف الذي خرجوا منه بالأمس. وكانت النتيجة أن أضعت السبيل إلى النبات والبساتين وكل ما له صلة بالطبيعة في واقعٍ كاد يلغي من حياة الناس وجود اليابسة.

ولكني لم أمكث في بلاط الشمال الذي يتوسّد بحر الوطن سوى بضعة أشهر، لأنتقل بعدها إلى شمالٍ آخر أبعد منالاً،

والبيوت فيه تترفّع عن الأرض مسافة أعلى، على الرغم من وجوده على الأرض، بيد أنه أبعد ما يكون عن الأرض، ففقدت الأمل نهائياً في استعادة حضوري على الأرض، كي أحقّق حلمي الأبدي في استنبات نبوت ورؤية ثمارٍ تتوّج سيقاناً تستعير سطوتها من باطن الأرض.

ولكن الجوع إلى الغرس لم يمت في الوجدان، لأن ما هو الحنين لاستزراع البذار إن لم يكن جواباً ماكراً على استبدال طبيعة الطريدة عندما كان الترحال هوية؟ ولكن الركون إلى الواحات هو الخيار الخطر الذي يستدعي احتراف الشأن المفروض بناموس الإستقرار، وما الهَوَس بالجذور سوى قناع للتعبير عن الفحوى في الهوية الجديدة، دون أن ننسى أن الجذور إذا كانت ترجمةً لحال استقرار، فإن الثمار هي قياس النفع في لعبة الوجود في بُعْده الجديد.

والمدهش بالطبع ليس أن تخاطبنا الطبيعة بلغة الأقنعة وهي التي لم تعترف يوماً ببيان سوى الإستعارة، كأيّ جنيّة صحراوية، ولكن في أن تبقى فينا هذه الجرثومة حيّةً طوال عقود على نحوٍ تنصّلت فيه من الجذور، بل ونسيت وجود شيء إسمه النبات تماماً، فإذا بالدسيسة تستيقظ في أحد الأيام عندما حللت ضيفاً على رحاب جبال الألب السويسري. فبعد إغترابٍ طويلٍ طويلٍ عن حضن أمّي الأرض، هرعت لنجدتي

أمّي الأرض. كفاها أنّي تنازلت عن كبرياء أهل السواد الأعظم الذين أبوا إلّا أن يبتنوا لأنفسهم صروحاً نصّبوها في الفضاء عاليةً، تأفّفاً من جيرة أمّهم الأرض، فاستسلمتُ لمشيئتهم، ظنّاً منّي أنهم فعلوا ما فعلوا تلبيةً لنداء سماء، لتأدية صلوات في حرم معبد، ولم أفق من غيبوبتي إلّا بعد أن عاندت نزيف الروح دهراً حدّقتُ فيه في سيماء الأبدية حتى أيقنت أني سأرحل قبل أن أمثل في بلاط أمّي الأرض لأستغفرها ضلالي، علّها تهديني سبيلاً أكفّر به عن خطاياي في حقّها، لأن ما لن يُخفَى عليها هو أنّي عشتُ شقياً طوال مرحلة اغترابي عنها. وها هي تهرع لاحتضاني يوم نزلتُ وطن الرؤى السماوية المشيّع على مناكب الألب الخرافية، كأنها كانت في انتظاري كي تهبني فرصةً أكفّر بها عن خياناتي.

كان البيت محفوراً في صلد إحدى القمم التي ترتفع عن اليابسة المتاخمة للبحيرة بما يزيد عن الألف متر. في سفوح هذه الشعفة المكابرة تستلقي مراعي الأبقار، وتتمزّق بالأنهار التي تتدافع من كل جانب لتغذّي البحيرة في الحضيض. هذه البحيرة التي ينطلق منها نهر «آري» الذي يرتحل من هناك، مخترقاً حاضرة الوطن السويسري، ولا يتوقّف حتى يدفع بكنزه النفيس في نهر «الراين» الأسطوري الذي تغنّت بعبقريّته ملاحم الأمم الجرمانية في الشمال.

في الواجهة الأخرى، الواقعة في الجانب الشمالي للبحيرة، تنتصب سلسلة الألب التقليدية، فتسطع شعافها، المتوّجة بالطرابيش الجليدية طوال العام، مستهينةً بشموس أصيافٍ تصل فيها الحرارة إلى 37 درجة مئوية. هذا المستوى في الإرتفاع لم يكفل لي فقط الإستمتاع بوجودي على ظهر اليابسة التي حلمتُ بها طوال تنقّلي للإقامة في أوطان الشمال، ولكنه حقق لي عجباً آخر هو قهر الغيوم التي كثيراً ما قنعت باحتلال منزلة تقع أسفل البرج، الذي صار لي مقاماً، كأنّ الأرض تأبى إلّا أن تكافئني على تضحياتي سنوات عراكي المحموم في طلب فردوس الجذور.

هناك عاودني الظمأ لاستزراع البذور.

في البداية جرّبت حظّي مع الزهور.

ذهبت مع مريم إلى الأسواق وقمنا بشراء بذار استودعناها تربة الحديقة الواقعة في السفح المجابه لمنزلنا. جاري السويسري الهِرّ «ناغيلي» أخبرنا في أحد الأيام المشمسة أن تربة حديقتنا طينة مميّزة تمّ استجلابها من قمم الألب التي ترتفع عن سطح البحيرة بما يزيد على الأربعة آلاف متر. ولهذا تكتسب قيمة زراعية خاصّة بالمقارنة مع تربة الأحاضيض، أو حتى بالمقارنة مع تربة الشعاف الجبلية الأقصر قامةً. حدث هذا عقب اليوم الذي اقترفنا فيه خطيئة

بسبب جهلنا بأجناس التربة في مملكة الألب. فقد قمنا بالتخلّص من تربة كانت تملأ صحوناً منحوتةً من الصلد، تتدرّج بأجرامها الثلاثة، بأحجامها المتفاوتة، من أعلى الحديقة، المشيّعة بما يقارب المتر فوق السبيل المؤدّي إلى المصعد يساراً، تجاور عتبات تقود إلى المرتفع حيث تستلقي الحديقة. الصحون الحجرية الثلاثة أقيمت خصيصاً كي تتلقّى المياه المتدفّقة من بئر إرتوازية مخفيّة تحت الأرض، لتبدع شلّالاً مصغّراً، يعزف أنشودة فتيةً ملحونةً بأوتار الماء. وقد اقترفت خطيئة لا تغتفر في حق المنظومة في بداية عهدي بالمكان عندما نسيت الزرّ الخاص بالمحرّك، الكامن أيضاً تحت الأرض، مرفوعاً مما تسبّب في تعطيل المحرّك، فاختنقت المعزوفة في حلق الشّلّال.

كان يجب إصلاح العطل بالطبع، ولكن انشغالي آنذاك بترويض أساطيري، جعلني أعادي كل ما من شأنه أن يلهيني عن تلاوة تمائمي تلك، فجفّ النبع، وماتت الأنفاس في الشلال، ولكن حلول مريم ضيفاً على دنياي، هو ما أحيا في قلبي العلاقة مع بستاني الذي نال منه الإهمال.

مع حلول الربيع أينعت الزهور في البستان الخارج للتوّ من منفى الشتاء. هلّلنا لميلاد الزهور من جوف عدمٍ مدبّر بمشيئة الجليد الذي إعتاد أن يكتم أنفاس منطقة الألب ثمانية

أشهر في العام. وربّما لهذا السبب أحسسنا بأننا بُعثنا من ميتة البيات الشتوي مع ميلاد الزهور التي تابعنا مخاضها بلهفة من ينتظر ولادة جنينٍ من بطن أمّ. وفي الواقع الزهور في طور التكوين ليست سوى أجنّة تتمخّض عنها التربة العطشى لاستنبات الجذور، فلا يملك مريد هذه الأعجوبة إلّا أن يعاني مَسّاً، لأن البذار آنئذٍ لا تنمو في باطن الأرض، ولكنها تنمو في باطن المريد. ولهذا السبب كان استنبات الزهور جنساً من توليد أجنّة. وهو ما يعني أنه ممارسة لما يمكن أن نسميه سعادة، كما عبّر لنا أحد جيراننا المعمّرين عندما مرّ بنا في طريقه للتنزّه وهنّأنا عندما قلنا له أننا نستزرع أزهاراً ليضيف قائلاً: ((هذا يعني أنّكما تستنبتان السعادة!)). **فالزهور حقّاً تنبت فينا، عندما نستنبتها، وظلّها هو الذي ينمو خارجنا!**

ربّما لهذا السبب قررنا أن نقطع شوطاً أبعد في طريق الزهور: قررنا أن نجرّب حظّنا في معاندة الورود! وهي فكرة لم تولد من عدم، ولكن أوْحَتْ بها سيرة لعبَتْ فيها شرفتنا دور البطولة.

الشرفة كانت فسيحة، تطلّ على الجانب المجابه للبحيرة، حيث تهيمن على شطآنها الأخرى سلسلة الألب، بامتدادها المهيب، وسطوتها المكابرة، كأنّ قوة غيبيّة اختطّتها هناك فتنةً

للعالمين. أسفل الشرفة طابقٌ يشرف على بستان جارٍ آخر، يقيم أسفل بيتي، ملتبس الطبع، ولا ينمّ سلوكه عن انتمائه إلى السلالة السويسرية ذات النقاء الأخلاقي، كما لاحظت منذ الأيام الأولى لوصولي، قبل أن يتوطّد هذا اليقين يوم أعيتني الحيلة في إتّقاء حملات المطر على الشرفة لتغمرها بالمياه في كل هجمة بسبب خطأ تقني اقترفه مهندس البنيان عند التشييد، فجعل البلاط مائلاً إلى الداخل قليلاً بدل أن يكون العكس، بحيث يجري تسريب المياه مع فتحة الأنبوب الجانبي، كي لا تغرق الغرف الداخلية كلّما تمادت الغيوث في غزواتها الموسمية، مستعينةً بجنون الرياح الغربية العاتية، التي تهب على مملكة الألب مع مفاصل الفصول.

لم أجد مفرّاً من الإستعانة بشركة إستشارية في هذا المجال، لتعيرني مهندساً أقبل ليتفقّد الموقع، قبل أن يقترح حجب الشرفة بستارٍ زجاجي متحرّك، بظلفتين، يكون سدّاً لصدّ هجمات الأمطار عند الضرورة، مع إمكان سحبه عند استقرار الظروف المناخية.

راقني المقترح، ولكني لم أتخيّل أنّ تعديلاً متواضعاً كهذا في شرفة بيت يقع في الطابق الأعلى للبنيان سيحتاج إلى معركة قانونية ما أغناني عنها، سيّما في ظروف عزلة يدري كل من أدمنها كيف تتحوّل أفيوناً لا سبيل للإقلاع عنه، كما لا وجود

لحيلة تقنع كل من إحترفها أن يعترف بما من شأنه أن يخدش حرمها مهما تبدّى في نظر الأغيار أمراً جللاً. ولم أكن لأقبل التحدّي لو لم أستصدر الموافقة على المشروع من سدنة المؤسسات الرسمية المخوّلة بالأمر، ظنّاً مني أن موافقة السلطات هي كل ما في الأمر، ولم أكتشف أني فتحت على نفسي ذلك النوع اللئيم من الأبواب التي تستدرج، لتتفرّع إلى أبواب أخرى، لا حيلة للتخلّص من دهاليزها إلّا بالفرار منها! فقد اتّضح فيما بعد أن موافقة السلطات الرسمية على إقامة سياج زجاجي في شرفة للوقاية من غزوات الأمطار، المدعومة من رياح الغرب الجنونية، أمرٌ لا يكفي بحكم القانون السويسري التليد، ولكنه يستدعي سلسلة موافقات أخرى، تشمل كافة الجيران بالبنيان. ليس هذا وحسب، ولكنها رهينة موافقات سكان البنيان المجاور، بل وموافقات سكّان كل الأبنية الواقعة في السفح السفلي التي تواجه النافذة الشقيّة، المعلّقة في البرزخ المشرف على الهاوية من أعلى. الخلاصة أن إمام اللؤم عرف كيف يحكم قبضته على عنقي بعد أن أوقع بي في الشرك، وكي أتملّص لم أجد مفراً للخلاص إلّا بدفع الصخرة إلى الأمام، علّ مفاجأة تحدث فتحررني من ورطة جرّبت شؤمها مراراً، دون أن أفلح في تحاشيها ولا مرة، برغم كل التدابير الإحترازية.

قمتُ بتكليف الشركة التي تتولّى مسئولية خدمات بنياننا، واستطاع مندوبها أن يحصل على موافقات كل الجيران باستثناء جار واحد هو الهِرّ «أوتمان» المقيم بالطابق الأرضي، الواقع أسفل بيتي تماماً. عبّرتُ له عن دهشتي دون أن أنفق وقتي في الإستفهام عن الأسباب، فما كان من مندوب المؤسسة إلّا أن عبّر لي عن أسفه، مشفوعاً بدهشته أيضاً من هذا التصرّف المستهجن بمنطق العقلية السويسرية التي لا تعبد شيئاً كما تعبد التسامح، وكلّ ما من شأنه أن يسعد الأغيار حتى لو كانوا أغراب سبيل، فكيف بأهل الجوار؟

بعدها زارني الِهرّ «شوتز» مدير المؤسسة المكلّفة بخدمات البنيان شخصياً ليبدي أسفه أولاً، وليناقش معي حلّاً آخر لمداواة الصداع. تحدّث فقال أنه ربّما وجد للهرّ «أوتمان» عذراً فيما لو كانت شرفته مسقوفة كشرفتي، ولكن أن تكون شرفته عارية تماماً، ثم يرفض أن يقوم الجار بعمل ما من شأنه أن يجير شرفته من غزوات الأمطار، فهذا ما يستعصي فهمه حقاً.

في تلك الوقفة اقترح الهرّ «شوتز» القيام بتشذيب بلاط الشرفة المائل وإعادة تشييده بحيث ينحرف عكساً، فوافقتُ فوراً لأنه الحلّ الأنسب، لا لأنه الأكثر حسماً في المشكلة وحسب، ولكن لأنه كفيلٌ بإنهاء الدوّامة والخروج من الشرك

بأقل الخسائر، برغم أنه الأغلى كلفةً، ولكن التجربة علّمتني أن كل خسارة تهون إذا ما قورنت بخسارة الوقت!

رشّح الهرّ «شوتز» شركة متخصّصة ووقّعت العقد لتدخل المعركة منعطفاً جديداً استغرق أمداً أكثر من المهلة المحدّدة في العقد. فالشركة مؤسسة تجارية. وأيّ عمل تتولّاه سيخضع لمنطق الصفقة التجارية. والصفقة التجارية بطبيعتها رهينة مصطلح عبقريّ ألصقته بها لغة التكوين منذ نشأتها قبل ستة آلاف عام ليجري على لسان السومريين في حرف «تامكارّا» التي تعني في الأصل: «المكيدة». وهو ما قد يستنكره مريدو هذه المهنة اليوم، ولكنهم لن يملكوا إلّا أن يستسلموا فيما إذا تأمّلوا معنا المدلول البدئي لما نسمّيه صفقة تجارية، لأن فحوى الغشّ فيها لم يحتفظ بطبيعته الأصلية وحسب، ولكنه في الواقع تمادى ليستعير الإحتيال شرعية مبرمةً بحرف القانون. وها هي الشركة المنفّذة تعبث بالوقت باستخدامها لهواةٍ إستقدمتهم من ألمانيا، فأساءوا العمل بسبب غياب الخبرة. وعندما عبّرت عن احتجاجي لم تملك الشركة إلّا أن تستجيب فاستبدلتهم بعمّال آخرين يشرف عليهم مستخدم سويسري لا يتسامح بطبعه في شأن الدقّة ونقاء العمل.

في ذروة هذه الزوبعة فوجئت يوماً بزيارة مفاجئة من الهرّ «شوتز»، مبعوثاً من قبل الجار الشقيّ «أوتمان»، بحكم عمله

كمسئولٍ على خدمات البنيان. لاحظت الحرج في مسلك الهرّ «شوتز»، ولكنه بذل جهداً كي يعترف لي بأن الجار السفلي قلق على مصير سقف بيته بسبب سطوة معاول الهدم التي تنهش الطابق الأعلى بضراوة. ضحكت وواجهت الرجل قائلاً أني سعيد إذْ أرى الهِرّ «أوتمان» يجني ما زرعت يداه! ألم يكن هو مَن اعترض على نيّتي في تحصين شرفة بيتي بواجهة زجاجية للوقاية من المطر دون أيّ حجّة منطقية؟ ومادام لم يتردّد في استخدام البعد الأعمى في مثل هذه القوانين التي تحرّم تغيير أيّ شيء خارجي بالبيت دون مباركة الجيران، فإن دوري الآن قد حان لأمارس حقي القانوني في استحداث أيّ تغيير أشاء مادام هذا التغيير يحدث داخل نطاق البيت، وليس خارجه. هذا من الناحية القانونية، أما من الناحية الأخلاقية فأتساءل: لماذا يلجأ الهرّ «أوتمان» إلى الهرّ «شوتز» كي يبعث به رسولاً لي قادماً من المدينة، في حين كان يستطيع أن يخاطبني من شرفته في الأسفل التي لا تبعد سوى مسافة مترين لا غير إذا كان مخلوقاً سويّاً حقاً؟

لم يجد الهرّ «شوتز» ما يجيب به على سؤالي سوى تعليق الذنب على مشجب «العقلية السويسرية» كما عبّر. ولكني لم أقبل حُجّته، لأن المقام بين السويسريين لعشرين سنة خلت كان كفيلاً بأن يدفعني كي أرفض الإساءة للعقلية السويسرية

المزعومة إذا كانت لتبرئة تصرفات أناس مرضى نفسياً، وربما عقلياً أيضاً، أمثال الهرّ «أوتمان» الذي لم تمهله الأقدار طويلاً كي تتكشّف لي حقيقته، سواء على مستوى الهوية الثقافية، أو على مستوى الطبيعة الأخلاقية.

ففي سويعات التجلّي التي كنت أتبتّل فيها في الشرفة كي أتلو صلواتي اليومية الصامتة في محراب السلسلة الأسطورية التي نصّبتها الطبيعة لتكون فتنةً للمريدين، كنت أخلو إلى نفسي في الأعلى كلما اقترب حلول المساء، لأترصّد مسلك الواقع الطبيعي التقليدي في سويسرا، وهو يتمخّض وَجْداً كي يلد الجمال. ففي هذا الطقس الذي يبدأ من موقعي في قمّة الجبل المقابل، لابدّ أن يعبر في مسيرته منازل أخرى للجمال، قبل أن يبلغ الذروة في الناحية المجابهة حيث تنتفض الأرض فجأة لتحلّق في الفضاء بقاماتها الخرافية المتفاوتة، المعمّمة دوماً بطرابيش الجليد، كأنها في توقها للحرية تنوي أن تستعير ألف جناح لتلتحق بالبعد المجهول. وكي أستزيد من الإمتلاء أحاول لجم البصر النفور، الجانح دوماً في طلب المزيد، لأستمهله كي لا تفوتني أية نأمة في طريق فسحته، محبوكةً كلها من فيوض الجمال، ليسقط بصري، مع بداية كل رحلة، على بستان جاري السفلي «أوتمان» الذي لم يستهوني فيه شيء كما استهوتني حبكة ورود، ذات ساق طويلة، تنتهي

في القمّة بباقة حقيقية، تبدو في فروتها السخية، المتلاحمة بحميمية، غاية في الفتنة، لم يحدث أن شاهدتها في أي بستان، أو أي متجر أزهار، أو في أي مكان، إلى أن جاء اليوم الذي أصابتني فيه حمّى استنبات الأزهار، ففاتحت جارتي عقيلة الهر «نيغيلي» بأمر حبكة الباقة المتنامية في بستان جارنا السفلي، مستفهماً عن الطريقة لاقتناء مثيلاتها، فأدهشتني عندما قالت أن الزهور في حديقة الجار الشقيّ، عطيّة مهنة، لأن الرجل يحترف تجارة الأزهار التي يستوردها من هولندا وألمانيا ليبيعها للمؤسسات التجارية السويسرية. أي أنه سمسار أزهار!

لم تكتفِ السيدة بهذه المعلومة في سيرة «أوتمان»، ولكنها فاجأتني بأن الرجل ألماني الهوية، ولم يحصل على الجنسية السويسرية إلّا أخيراً!

في ذلك اليوم خرجت لنزهتي اليومية في الحقول الواقعة على المرتفعات شمال بيتي خصّيصاً كي أتأمّل المعلومة. فأن يمتهن الرجل تجارة الزهور أمرٌ لا يخلو من دلالة. أي أنه لا يتعامل مع هذه الأعجوبة التي كانت في كل الثقافات رمزاً للجمال، ككائن حيّ جدير بالحبّ، ولكنه يمارس في حقه تلك المكيدة التي خلعها السومريون على التجارة لتكون وصمة عار في جبين كل من احترفها، لأنها رهينة انحطاط أخلاقي

استنكرته كل الأمم النبيلة واستنزلت في حقّه حكم التحريم كالإسبارطيين مثلاً، وأهل الصحراء الكبرى أيضاً، فكيف إذا كانت فحوى هذه التجارة ليست أي بضاعة أخرى، ولكنها باقات تلك الأعجوبة التي لم تكتفِ بأن تكون رمز الجمال في ثقافات الشعوب، ولكنها استعارت بُعْداً أبعد عندما أضحت قريناً لمعجزة الروح؟

بلى! فتلةٌ محكمةٌ، تبدو كعشٍّ حكيم: ملاذٌ مكبّلٌ بحبكةٍ سرياليّة، مطلسمٌ بمعجمٍ أعجميّ، مسكونٌ بروح البُعْد المفقود.

فأن تهدي وردة يعني أن تهدي نفحة روح. ولهذا كان فعل إهداء وردة ضرباً من سحرٍ لا يقاوم، لا بين عشّاق متلهّفون للتعبير عن حبّهم وحسب، ولكن بين عشّاق يتلهّفون لاسترضاء المعشوق أيضاً. وهو ما يعني أن الوردة وحدها تصلح سفيراً لاستعادة الودّ المفقود، أو رسولاً لتشييد قناطر علاقة عصيّة بين قطبين، هذا برغم ما في هذا الفعل من أنانية، بل ووحشية منكرة، لأن قطف وردة هو في الواقع خطيئة لا تغتفر، لأن القطف هو قتل، والنزيف الناجم عن هذا الجرم لن يبرّر الغاية حتى لو كانت الرغبة في إعلاء شأن قيمة كالحبّ!

فكم من روح أمات الهرّ «أوتمان» كي يكسب رزقه الملوّث بضحايا الروح طوال هذه الأعوام؟

في تلك اللحظة فقط أدركت أن رجلاً يقتات السُّحْت كما «أوتمان» لن ينجو من لعنة الأرواح الميّتة، والكراهة المسبقة التي يختزنها، أو العداء المجاني المسبق، الذي يكتمه، هو قصاصٌ لا ينال الأغيار كما يتوهّم، ولكنه وباءٌ ينهشه هو!

في تلك النزهة تذكرت الإستفتاء الذي أجرته وسائل الإعلام السويسرية عن وجهة نظرهم في جيرانهم الألمان، فما كان من تلك الطينة الأكثر تسامحاً في العالم كالسويسريين إلّا أن تُجمع على خصلة رذيلة في الجنس الألماني وهي: **الوقاحة!**

وبالطبع لا نملك الحقّ في الحكم على أمّة عظيمة كالألمان من خلال خصلة فرد، بدليل أن ما يؤكّده مسلك إنسان مثل هرّ «أوتمان» البائس، تنفيه إنسانة ألمانية كانت إلى جواره طيفاً مسالماً، بشوشاً، دمثاً، ولكنها لم تحتمل الإستمرار معه طويلاً، برغم حياة استغرقت ربع قرن، فهجرته لتقيم في الحاضرة بيرن. هذه السيرة تزامنت مع المرحلة التي صارت فيها الورود في حياتي هاجساً. أمّا الباقة الفاتنة، المشيّعة على متن ساقٍ صقيلةٍ، كأنها في استعلائها عود بانٍ، فقد انقلبت في تأمّلاتي وسوسةً. طلبتها في كل الأسواق المجاورة، بل وسافرت إلى بيرن وجنيف وزيورخ، وبعض المدن والقرى الواقعة بين هذا الثالوث، ولكن عبثاً، إلى أن

جاء اليوم الذي طرقت فيه هذه اللقية باب بيتي بمشيئة إعلانٍ مجّاني تحرص الشركات عادةً على توزيعه في كل مكان لضمان تصريف سلعها. على صفحات هذه النشرة الإعلانية إنتصبت التحفة المنشودة في هيأة ملوّنة، وبإخراجٍ ماكرٍ مجبولٍ بحيل الإغواء، معروضةً للبيع في مشتل يقع في قرية إسمها «شمبول» شمال شرق الحاضرة، في الطريق المؤدّي إلى زيوريخ، فجاهرت بالبشارة لمريم.

في اليوم التالي غادرنا في طلب الجنّية المنشودة. استحضرناها لتحلّ في رحاب الألب ضيفاً حلمنا باستقباله طويلاً:

كانت قد استقرّت في جوف وعاء من خزف، مهيمنة بقامة مستقيمة، بساقٍ تناسب في امتلائها حجمها المتواضع، عارية من الشوك، في حين التأمت الأعراف في الأعلى مسلّحة بالأشواك، لينتهي كل عرف بلفافة البتلات القانية، متعانقةً، منكفئة حول نفسها، كأنها تحتمي ببعضها البعض خوفاً من خطر مجهول يتهدّدها، ولكنها لا تقنع بهذا الحلف، فتهرع إلى قريناتها، لتدشّنّ معها عهداً أقوى سلطاناً وأمنع منالاً، في قران الأعراف المحموم الذي يتلاحم في قوسٍ مزموم كأنه كيان قبّة.

ولكن وجودها سجينةً في جوف الوعاء الخزفي لم يقنعني،

لأنه استهانة بناموس الجذور. الجذور التي استيقظت في نفسي وظلّت تتكلّم بالإنابة عنّي، وتملي مشيئتها في كل ما متّ بصلة لعلاقتي مع النبوت. كثيراً ما جلست لأتأمّلها مستعيداً السيرة التي قادتني إليها لأعترف لنفسي كم للشرّ من أفضالٍ علينا، بعد أن كانت تجربتي الدامية مع الجنس البشري حتى ذلك الوقت قد لقّنتني حكمةً هيهات أن يحققها لنا رسل الخير، لأنهم يهدهدوننا، ويضللوننا، عندما يربتون على أكتافنا، ليهوّنوا علينا، في حين يوقظنا الشرّ من غفلتنا عندما يرمي بالحقيقة في وجوهنا، فنستيقظ من غيبوبتنا. لذا لا يجب أن نستحي عندما نقول أننا، في الواقع، مدينون للشرّ **بحريّتنا**، كما نحن مدينون للخير **بغفلتنا**، مما يجعلنا نعتنق دين الوصيّة القائلة: «رُبّ ضارّةٍ نافعة» مقلوبةً، فنقول: «رُبّ نافعةٍ ضارّة!». فرذيلة الخير في أنه يهدهدنا، فيستدرجنا. وفضيلة الشرّ في أنه يؤدّبنا، فيوقظنا. فلتتقبّل إمتناني يا مصّاص دماء الجمال الذي لا يستحي أن يحيا على كتم أنفاس الزهور، ولكنه بالمقابل يقودنا إلى محفل الجمال دون أن يدري، لأنه على دين ميفستوفلس في «فاوست» الذي يقول فيه لسان الحال: «أنا أفعل الشرّ ليقيني بأنه يتحوّل خيراً، ولكني لا أفعل الخير أبداً، لئلاّ يتحوّل شرّاً»!

كانت مريم تدلّلها، تسقيها مياه الينابيع الجبلية النقيّة،

وتحتضنها وهي تطوف بها بين البيت والبستان كل صباح كي تتزوّد بحاجتها من شعاع الشمس وتستنشق البلسم في أهوية الألب الشافية، وكي تتمتّع أيضاً بصحبة الزهور الأخرى التي استزرعناها كي تكون لها أنيساً في وحشة إغترابها، ثم تتفقّدها طوال النهار قبل أن تستعيدها في المساء لتنام داخل البيت خوفاً عليها من صقيع الألب الذي لا يلين حتى في الأصياف، فيتمادى بحلول الليل. استجلبتْ لها من الأسواق سائلاً خاصّاً للإستحمام كل يوم، وتراباً نفيساً بمثابة وجبة إفطار، وداعبناها مراراً كأنها وليدنا الرضيع! ولكن كل هذا لم يشف فينا الغليل، لأن تنقّلها بين أيدينا كان موجعاً بسبب غياب الجذور، ليقيننا بأن الجذور في عالم النبات هي التعويذة الوحيدة التي يمكن أن يعوَّل عليها. وهكذا قررنا في أحد الأيام أن نحررها من معتقلها في الشَّرَك البغيض، ونستودعها الأرض كي تستعيد وطنها الضائع في الجذور.

هيّأنا لها مكان الصدارة في البستان، واحتفرنا لها موقعاً مناسباً حقنّاه بتلك الأسمدة التي نصّبها دهاة البَستنة ترياقاً لا غنى عنه لتسهيل عملٍ جراحيّ كتوطين هويّة مجهولة، لأنها ليست بعشبة، وليست بشجرة، ولكن ما تتباهى به هو حملها لجينات النوعين معاً. استودعنا روح شجرة الورد رحم التراب، فهل نعمنا بهناء؟

كلّا بالطبع. فقد أخبرتنا جارتنا «فراو نيغيلي» في اليوم التالي بأن عمر هذا الجنس من الورود لا يتخطّى مهلة الموسم الواحد، لأن قسوة الطبيعة في شتاء الألب لا تتسامح مع النباتات الهشّة عادةً فتقبض روحها مع نهاية كل خريف.

لقد تكلّمت تلك السيدة في ذلك اليوم بلهجة كاهنة إغريقية تتلو في معبد دلفى وصايا القدر لتترجم إلى لسان البشر البهتان في سيرة الكائنات، ولا جدوى من مجادلة باطل الأباطيل، لأن كل شيء على وجه الأرض فانٍ، فكيف بأكثر ما وُجد على وجه الأرض هشاشةً كما هو الحال مع المعبود الوحيد الذي يجلب بعض العزاء في وجودٍ منذورٍ للفناء: **الجمال**؟

مريم الآن بدأت تقضي جلّ الوقت مع جاراتها في البستان للإعتناء بباقة الورد المرفوعة فوق الساق اللميسة بدعوى وجودها في طور نقاهة بُعَيد اجتثاثها من منفاها في الوعاء، واستدراجها للمقام في البرّ الوحيد الذي ينعدم فيه وجود سدود يمكن أن تعترض مسير الجذور: **التراب!**

لم تبخل مريم لا بالوقت، ولا بصنوف العناية على أميرة النبات المدلّلة ذات الهوية المزدوجة، بل ربّما نالت فتنتها بسبب هذا الإزدواج في الهوية. فهي ليست شجرة، وليست مجرد باقة. ساق شجرة تنتهي في القمة بباقة إكليل ورد. ليس إكليلاً ملفّقاً من أعراف وردٍ مقتطفة من جنّات بستان، ولكنه

إكليلٌ مشدودٌ إلى ساق، والساق مكبّلةٌ بجذور! وهو امتياز يؤهّلها لأن تلعب دور الإكليل الذي يُطرح على ضريح الجندي المجهول، ثم يمكن إستعادته من عالم الغيوب في الصباح كي يكون ضيف الشرف في غرف الجلوس. ولم نكتشف أنّه فَقَدَ هذه الموهبة إلّا عندما استودعناه الأرض ليغدو في رحمها مصفّداً في الأسر. فعلنا ذلك أملاً في الإحتيال على الزمن، لأن جوف الأرض كان دوماً الحصن الحصين من الآفات التي لا تحتمل الإستظهار فتُفْنِي مع الوقت كل ما علا سطح الأرض، والدليل هو الكنوز التي لا تحتفظ بهويّتها ككنوز ما لم تندسّ عميقاً في بطن الأرض، فيفنَى أصحابها الذين أخفوها، وتبقى من بعدهم لتكون غنيمةً من نصيب أغيارٍ حالفهم الحظّ. ولكن ما لم يخطر لنا على بال هو المكيدة المدبّرة بطبيعة المكان، بطبيعة الألب الذي لم يكتفِ بأن يستظهر، ولكنه استطلع، بل وتمادى في رحلة الإستطلاع التي لم تغتفرها السماء في حقّ كائن أرضيّ يوماً، ممّا استوجب دفع المكوس. فكل جِرمٍ علا لم يعدم نيل القصاص. تناله سياط العواصف، فإن نجا من العواصف، لم يكن لينجو من الأعاصير، فإن نجا من الأعاصير، لم يكن لينجو من بطش الصواعق، فإن نجا من الصواعق، هيهات أن ينجو من براثن التنّين الأعظم شأناً من كل القوى: **الزمن!**

الزمن آفة البدايات، لأن قوّته تتجلّى في كل ما استظهر، لأن ما أطلّ برأسه فاستظهر، وحده يستكبر!

أمّا الألب الذي ارتفع أكثر مما ينبغي عن حضيض اليابسة، فقد استعار سلاحاً آخر في قدر الإفناء. إنّه: **الثلوج!**

الثلوج الشرِهة التي تغمر كل شيء، وتبتلع كل شيء، فلا تذوب بتذبذب الفصول، ولكنها تتعنّت وتتجلّد، فتخفي كل غنيمةٍ ابتلعت، والدليل مومياء قنّاص الخمسة آلاف عام الذي استبقته في بطنها كل هذه الدهور، ولم تكشف عنه في أحد الأيام إلّا مصادفةً.

فأيُّ خطيئةٍ اقترفنا في حقّ لُقَيَتنَا النّفيسة حتى نلقمها لهذا الوحش بالمجّان، فلا نستعيدها أبداً؟

أيقنتُ بأننا فقَدنا حسناءنا من حيث أردنا لها الخلود، ولكن مريم وحدها لم تقتنع بالحجج التي تغنّى بها آل «نيغيلي» بشأن متعة الموسم الواحد. وعبثاً حاولت أن أقنعها بأن الجمال لا يكون جمالاً إن لم يكن بالسّليقة عابراً. الجمال بطبعه هبة وقتيّة. وحتى إذا هيمن وخدَعَنا بطغيانه، فتوهّمنا بقاءه، فإن الغيوب لا تلبث أن تخذله، لتُرينا كم هو شقيٌّ وعاجز في المواجهة مع الزمن.

مريم لم تعترف بناموس الطبيعة، ولا بمنطق الأشياء،

لأنها عوّلت، بحدس المرأة، على المعجزة الوحيدة القادرة على قهر حتى الزمن، وهي: **الحبّ!**

كنت أبتسم عندما أسمعها تهتمل بشجونها أثناء قيامها بصنوف عنايتها باللقية في موقعها الجديد في قلب البستان. كانت تستقلّ الحافلة لتنزل إلى المدينة الهاجعة على شاطيء البحيرة في الحضيض، لتطوف الأسواق بحثاً لها عن المراهم المغذية، أو الأدوية المعادية للآفات، أو السوائل الخاصة بإزالة الأدران وغسل ذرات الغبار عن البتلات، أو كل المستحضرات الكثيرة التي اعتاد دهاة التجّار أن يستحدثوها في هذا المجال لخداع عشّاق الزهور لعلمهم بأنهم كم هم بلهاء وضعاف نفوس!

مريم لا تكتفي في حملاتها إلى المراكز التجارية باقتناء المستلزمات، ولكنها تأبى إلّا أن تحتكم لخبراء النبات طلباً للإستشارات، أو للإستفهام عن المستحدثات في عالم الرفق بالنبات. ولا تعود من هناك إلّا بعد أن تكون قد دوّنت وصايا هؤلاء الدراويش في مفكّرتها لتهتدي بها في محفل طيفها المبجّل.

يطيب لي أن أشاهدها من طابق بيتنا العلوي وهي تحوم حول ضيفتها لتهوّن عليها غربتها بأجناس الحيل. ترويها بالماء، وترشّ البتلات بأصناف المستحضرات التي جلبتها في

غزوتها الأخيرة. تدسّ في جذورها بذوراً مشبوهة تلبيةً لتزكيات بلهاء النبات في الأسواق قبل أن تغمرها بسائل غنيّ بالفيتامينات حسب وصية التجّار. تقوم بكل هذا دون أن تتوقّف عن مخاطبة اللقية بصوتٍ عالٍ. فكانت الجارات يتبسّمن وهن يتابعن خلسةً طقوسها مع جوهرة البستان بعد أن اعتدن كيف يروق مريم أن تخاطب في طريقها كل شيء بصوت مسموع، سواء أكان إنساناً أو حيواناً، شجراً أم حجراً، يقيناً منها أن كل الأشياء في الأرض تسمعنا، بل تهفو لسماعنا، كل ما هنالك أن اللسان يعجزها فلا نسمع نداءها.

في ذلك اليوم شاهدتُ أيضاً كيف أقعت القطّة «فيلو» في جوف الصحن الحجري الأعلى، ميمّمةً صوب مريم أثناء إنهمامها بشئون لقيتها، مرددة مونولوجها، كأنّ تلك القطّة الذكية في هيأة ذلك اليوم، تتأمّل مريم، وتعجب من طريقتها، برغم يقيني بأنها وحدها لا تبتسم سخريةً منها، لأنها صديقتها التي اعتادت أن تداعبها كلّما التقتها خارج بيت جارتنا، فتخاطبها باللغة نفسها، فلا تستنكرها الآن أيضاً، لأنها تفهمها. فلا تدين مسلكها لهذا السبب فقط، ولكن لأن «فيلو» قطة مفتونة بالجمال. فكم مرةٍ شاهدتها وهي تقعى في الصحن الحجري بوجوم مريدٍ، وسكون ناسكٍ، لتترصّد سحر الغروب؟ وكم مرة شاهدتها وهي تستنزل في هيأتها ذات

القناع الغيبي الذي لا تتقنه سوى المخلوقات التي نسمّيها حيوانات، لتتلو صلواتها الصامتة في حضرة الزهور يوم أينعت؟ ألم أشاهدها في مسوح تقواها وهي تتأمّل سلطانة الورود يوم استودعنا الباقة بطن الأرض، فانتصبت (الباقة) باستكبار في قلب البستان كأنها تتباهى بامتلاك موطيء قدم لها في أرضٍ تستطيع أن تضمن فيها امتداد الجذور.

و«فيلو» هذه بطلة أخرى في دنيا الألب. وقد أدركت بعبقرية الغريزة نقطة ضعف مريم منذ وصولها فأبرمت معها صفقة خفيّة لازمتها بموجبها إينما حلّت سواء أثناء عنايتها بالبستان، أو طوافها في أنحاء الجوار، بل ورافقتها مراراً في نزهة الحقول، أو الحملات على الأسافل لاستجلاب المؤن العاجلة من الحانوت الواقع في الأسفل، وكم حاولت مراراً أن تفرض نفسها علينا ضيفاً مقيماً لولا موقفي المبدئي من سيرة استئناس الحيوانات التي لم تُخلق لنستدرجها من فردوسها في الطبيعة الأمّ إلى معتقلات جدراننا البغيضة، كأنّ قدرها أن تدفع ثمن إغترابنا نحن عن الطبيعة فنسجنها معنا ما دمنا قد قررنا أن نسجن أنفسنا. وهو اجترارٌ لسيرتنا مع الكائنات النباتية أيضاً التي اعتدنا أن نستقطعها من موقعها الطبيعي في مملكة الطبيعة لنكتم أنفاسها معنا في حبوسنا المميتة، فلا نكتفي بهذا الجرم، ولكننا نُحكم حولها الشَّرَك

في قمقم الأوعية، بدل أن ندعها طليقةً في أرضها الفسيحة تحت قبّة السماء المشفوعة بالشمس، في رحاب المقام المغسول بالأهوية، كأننا نتعمّد أن نستضيف هذه الكائنات التي كانت يوماً جزءً منّا، فخذلناها يوم ارتضينا ذلّ الفرار من الحرية، باختيار الإستقرار بديلاً، وهو ما لم نغتفره لأنفسنا، مما دفعنا لاستدراج كل كائنات الأمم من حيوانٍ ونبات إلى دنيا عبوديّتنا، لا حبّاً بها، ولكن انتقاماً منها، لأن مَن ارتضى لنفسه العبودية قدراً وحده لن يحتمل رؤية الكائن حرّاً، لأنه يذكّره بهزيمته، فيفعل ما بوسعه كي يستدرجه إلى حضيضه، كي يكون له شريكاً في ذلّه. لهذا السبب، ربّما، لم يفارقني الإحساس العميق باقتراف الإثم في تلك السنوات التي سمحت فيها لنفسي بالإبقاء على الغزلان التي نلتها على سبيل الهبة سجينةً في فناء البيت أثناء إقامتي في حاضرة الواحات، ويبدو لهذا السبب كنت أستشعر فرحاً خفيّاً كلّما فرّت تلك المخلوقات الإلهية إلى البريّة، لأن في استعادتها لحريّتها تعويضٌ لي في عجزي عن استعادة تلك الحرية التي افتقدتها يوم خروجنا الجماعي الإجباري من فردوسنا الذي لن يُكتب له أن يتكرر في ربوع أجمل صحاري العالم جمالاً وأكثرها اكتمالاً على الإطلاق، كما يصفها مريد الصحاري العلّامة الفرنسي «مانو»، دون أن أنسى إلى هذا اليوم طبيعة هذا

الخروج الذي لا يقارن إلّا بخروج العبرانيين التراجيدي، من أرض مصر، لأنه لم يتمّ بمشيئة أرضيّة، ولكن بقدرٍ غيبيّ. فإذا كان خروج بني إسرائيل من مصر خروجٌ إلى أرض الميعاد، فإن خروج بني وطني الصحراوي العظيم من أرض الميعاد إلى المنافي التي لم يعد منها شعبي بعد ذلك اليوم أبداً. وإذا كان خروج بني عبران حدث بوحي ألوهي، فإن خروج بني وطني تمّ بمكيدة بشرية لعب فيها الإستعمار الفرنسي دور البطولة عندما لم يكفه كل ما فعله بهذه القارّة البكر، بل الأكثر بكارة من كل بقاع المسكونة، ولكنه أبى إلّا أن يُضيف إلى خطاياه الكثيرة في حقّ الأرض وفي حقّ أهل الأرض، خطيئة أبشع عندما فجّر قنابله النووية في حرمها الجليل ليستنزل بهذا الفعل الشنيع كارثة إبادة لم تصب بأنفاسها المميتة أهل المكان وحدهم، ولكن شرورها نالت كل الكائنات بما في ذلك الحيوان والنبات. وهو ما سيعني في النهاية أن خروج بني عبران كان تحريراً من عبودية، وخروجاً إلى جنان الحرية، في حين حدث مع قومي العكس: خروجهم كان تحريراً من حرية، ودفعاً إلى جحيم العبودية، لأن ما يبدو في نظر العالم استقراراً، ما هو في في نظر أهل البرية سوى قبول بالعبودية. ولهذا السبب لم أرَ في الكائنات المستأنسة يوماً سوى أرواح منفية عن طبيعتها، لأني لم أرَ

نفسي يوماً سوى كائن سجين مثلها، وما طوافي عبر قارات العالم سوى تعبير استعاري عن توقي للعودة إلى أحضان الأم المفقودة، التي لم تكن مرّة سوى فردوسي الشخصي المفقود: إنها الطبيعة في أكثر أبعادها عفويّةً ونبلاً وزهداً وربوبيةً: **الصحراء!**

ولم أكن لأبخل على إنسانة مثل مريم بنفيس، فأعترض على اقتنائها قططاً، لولا إحساسي العميق بأنّي سأقترف خيانةً في حق معبودتي الخالدة (الصحراء) إذا سمحت لنفسي بالمشاركة في المكيدة المدبّرة ضدّ كائنات الطبيعة سواء الحيوانية أو النباتية، ربما لهذا السبب أيضاً لم يفارقني تبكيت الضمير جزاء ذهابي لاسترداد نباتات محجوزة في أوعية، هي بمثابة أقفاص، كي أتسلّى برؤيتها في سويعات الفراغ، كأنّي أساهم بما استطعت في اليقين الذي يعتنقه الكلّ عندما يقومون بحبس الكائنات الحية أو النباتية في سجونٍ من صنعهم كي ينتقموا منها لا لشيء إلّا لأنها لم تذهب برغبتها لترهن وجودها قيد الشَّرَك كما فعلنا نحن معشر البشر. لم أكن نصير تربية الكلاب أو القطط أو ما شاكلها ليقيني بأن جنّتها هي الطبيعة، ولإحساسي بأني أنتصر لها أن ترتضي لنفسها قدراً لم أبخل به على نفسي.

ولكن «فيلو» التي حرّمت عليها البقاء داخل حبوسي،

استبدلت المقام بالداخل، بالمقام على عتبة الباب. لقد نصّبت نفسها على بيتنا حارساً ينازل عساعس الغابة، وفئران الحقول، وأشباح المقبرة المجاورة بالليالي، وينازع الهوام وأجناس الطير بالنهارات، ليطرد كل شيء عن مسرح البيت، لأنها بالمقارنة مع توأمتها «سامبينا» القابعة ببيت الجارة آناء الليل وأطراف النهار، مهووسة بكل ما له صلة بالبرّ. فإذا سئمت مجال بستاننا وبستان أهلها دبّت في الخلوات المجاورة. تهيم على وجهها مسافات طويلة جداً، فكنّا نلتقيها عند تجوالنا في الحقول البعيدة، فلا أصدق نظراً لجهلي بسيماء ملل القطط التي تتشابه، ولكن مريم كانت تدلّل لي على هوية تلك الجنية في كل مرة عندما تناديها فتهرع نحوها وهي تموء وتتمسّح بها، وتتمرّغ على حشائش الأرض استجداءً لمداعباتها.

والواقع أن التوق إلى الحرية ليس كل شيء في مسلك «فيلو» إذا ما قورن بتوأمتها «سامبينا»، ولكن إحساسها بالجمال. فكلّما انتصرنا على خمولنا وقمنا بواجب تشذيب الحشائش في البستان، أو بحملة تنقية أرجائه من يبيس العشب، أو أوراق الأشجار التي تغرق ساحتها بفعل الرياح، نشاهد القطّة وقد استقرّ بها المقام في جوف صحن الصلد، لتسكن هناك وهي غارقة في تأمّل المشهد الجديد حال

انصرافنا، لتمكث في هذه الصلاة حتى يهيمن على المكان غيهب الغروب. هذا في حين تتشبّث «سامبينا» بعرينها داخل بيت السيدة «نيغيلي» مستسلمةً للخمول، وتناول الطعوم التي شوّهت فيها الكيان، وأصابتها بعواقب لم تكن التخمة أرذلها، لأن الورم الخبيث ما لبث أن نالها، ولولا التدخّل الجراحي في الوقت المناسب لفقدت «فيلو» أنيستها الوحيدة من بنات جنسها في عالم الألب الموحش.

2

مع حلول الخريف تذبل البتلات في كل الزهور، ويدبّ الشحوب في سيقان النبوت، وتبدأ الطبيعة تتفنّن في نسج مرايا الفتنة في المشهد كأنها تتعمّد التلويح برشوة الوداع، استعداداً لاستقبال الكفن الوشيك الذي سيسحق بكلكله الفجيع كل شيء حيّ في رحاب الألب الأبيّ ليبرهن كم هو أمرٌ جلل أن نسمو أكثر مما يجب، لأن مجاورة الملكوت في المسافة، لا يختلف كثيراً عن التحديق في الأبدية، لأن الموت هو الثمن المستحقّ في الحالين.

مع أواخر سبتمبر حلّ النزيف الدّامي في أوراق الأشجار كمفتتح أول في ملحمة الجراح التي لا وجود معها لترياق، وفي أوائل اكتوبر تهاوَت الأوراق مع اشتداد حملات الرياح الشمالية، أو الشمالية الغربية الباردة، لتكسو الحقول بسخاء كأنها ضحايا أجناد جيوشٍ خاضت حرباً ضروساً فاكتست الساحات بالقتلى!

في مثل هذا الوقت من كل عام تبدأ طقوس الطبيعة في مسيرة تنكّرها لسليقتها، تمهيداً لاستبدال جلدها، فتكون الزهور أول القرابين، لأنها في الصفقة الطرف الأكثر هشاشة، فلا تجد مريم ما تفعله لحماية باقتها من الغزوة الهمجية المباغتة سوى الإستعانة بأكياس اللدائن التي تطوّق بها فروة الباقة البائسة، علّها تجدي في التهوين من وطأة السطوة الكامنة في غول الثلج، غير مبالية ببسمات السخرية في سيماء جاراتها، لخبرتهنّ بطقس الألب الذي لا تعصم من بطشه مثل هذه الحيل الصبيانية.

يستمر غزو الثلوج طوال الأشهر التالية، فيستسلم الألب لمشيئة بياتٍ شتوي طويل، تعيد فيه الطبيعة صياغة خريطة الأرض بما يتمشّى مع ناموسها هي: هذا الناموس الذي لا يقبل التجزئة، أو يعترف بالحدود، ولا بأعراف الخليقة المفتونة بالقسمة، استجابةً لنداء الجشع، أو المفروض بأهواء المِلْكيّة.

فالعواصف الثلجية عندما تهبّ، بذلك النفس الموصول والطويل، تمحو كل ما يعترض سبيلها، لتسوّي في اليابسة كل شيء: تردم الأسوار التي حرص سليل الإنسان أن يجعلها سدّاً في وجه أخيه الإنسان، وتمحو الفواصل المضحكة التي اصطنعها الجار ليفصل بستانه عن الجار، فلا

تكتفي الطبيعة بهذا الدرس، ولكنها تأبى إلّا أن تسدّ حتى الطرق التي تصلنا بعالم المنطقة السفلى، في نيّة لإعادتنا إلى فردوس طبيعتنا الأصلية، عندما كنا مع هذه الأمّ كلّاً حميماً واحداً، قبل أن يحلّ الخلل الجلل، فنغترب عنها لنحيا الإنفصام الفاجع.

فصل البيات الشتوي يلتهم من حياتنا الفسحة الواقعة بين أكتوبر حتى مايو من كل عام، فنحيا سجناء طوال هذا الأمد. عزلتنا تبدو إجبارية، ولكننا نستمرئها، ربما لأنها تحررنا من الإحساس بوجودنا رهن عالمٍ لم ننتمِ له يوماً، بل لم يكن في حياتنا سوى الكابوس الذي كتم أنفاسنا دوماً، ولكننا عدمنا الحيلة للتنصّل منه وإلّا لما اخترنا المقام على مناكب هذه الصروح الخرافية التي كانت ولا تزال في نظر الناس منفى: منفى ليس فقط بمنطقنا نحن المجبولين بطينة جنوب العالم، ولكن بمنطق السويسريين الذين أحسنت بهم الظنّ دوماً في كل ما متّ للطبيعة بصلة، لو لم يخذلوني مرة في إحدى الندوات المنعقدة عن أحد أعمالي الروائية في الحاضرة «بيرن» عندما ورد في تقديم الناقد «ريتّو زورغ» كيف انتقلت أخيراً من «هونيباخ» للإقامة في «غولديفيل»، فتضاحكت في القاعة تلك الفئة التي لم تقبل يوماً على مثل هذه الملتقيات طلباً لمعرفة، ولكن استجداءً لتسلية. وحتى لو صار الإنتقال من قرية إلى

قرية أبعد منالاً في محيط الألب سبباً لسخرية، فلن نلوم جناب الجمهور، لأن عملاً كهذا في نظر الناس بمثابة خيانة لديانتهم، لأن التخلّي عن المدن هو تمرّدٌ على معتقدهم، ورفضٌ لإجماعهم، والإنسان يمكن أن يغفر خطايا كثيرة في حياته شريطة عدم المساس بمعبوداته.

بلى! الوباء السائد أدرك حتى الإنسان السويسري الذي كان إلى عهدٍ قريب النموذج الأمثل في حميمية العلاقة مع الطبيعة. فالهوس بالعولمة، وحقن الوجود بفايروس الأمرَكَة، صار إنجيلاً في حياة الأجيال الجديدة، فما كان من الطبيعة إلّا أن أشاحت بوجهها استحياءً، لتزداد بهذا الموقف عن دنيانا اغتراباً؛ فإذا حدث واستجار بها مريد، فإنها تهرع لملاقاته بلهفة أمّ تحتفي بعودة الإبن الضالّ، فلا تجد ما تفعله به كي تجيره من منفاه سوى أن تحتضنه لتستودعه بطنها إلى الأبد، وما حملاتها الجنونية، كحملة ذلك العام، إلّا الدليل على توقها لالتقام الأبناء شفقةً عليهم من جور الوجود.

وها نحن نتململ في عرين بياتنا الشتوي بعد أن حاصرتنا الأمّ مستعينةً بأكفانها الثلجية الصارمة لتسدّ علينا المنافذ، وتقطع الطرق التي تربطنا بالمدن، وتحرمنا حتى من جولاتنا التقليدية في رحاب الحقول في السفوح الشرقية، بعد أن مسحت العواصف الثلجية وسم الدروب التي اعتدنا أن

نسلكها في نزهاتنا اليومية، لتتحوّل أرض العرق الجبلي الرهيب قطعةً واحدة هائلة مغمورة بطبقة جليدية قاسية لم تنجُ من بطشها حتى غابات الصنوبر المحيطة بالمكان، أما البيوت فتوارت خلف ركام الكفن الناصع، فاختفت ولم يعد شيء يدلّ على وجودها في الموقع سوى ذيول الدخان المنطلق في الفضاء المظلم من فوّهات المداخن.

عشنا في ضبابٍ دائم أَنْسَانَا وجود تلك الغنيمة الإلهية التي استهنّا بها لمجرّد أنها تطالعنا كل يوم، فعرفنا لماذا نصّبها الأوائل في دياناتهم معبوداً. لم ننسَ وجود الشمس فحسب، ولكننا نسينا وجود التراب. نسينا وجود عشب يكسو طلعة التراب. نسينا وجود الورد الذي كان في حياتنا بالأمس فقط فتنة المجّان التي جادت بها الأرض بسمة امتنانٍ للسماء جزاء هبة المعبود. لم تختفِ من البساتين فحوى البساتين وحدها، ولكن البساتين نفسها اغتربت عن المكان بعد أن غيّبتها الثلوج عن واقع المكان. ولكن. .

ولكن مخلوقاً واحداً لم يعترف بالنكبة التي حلّت بفردوسنا في «غولديفيل» ذلك العام. مخلوق واحد فقط انتصب في غياهب الضباب كالشبح، ممتشقاً مسحاةً تبدو كأنها حربة محارب يقاوم سلطان الجليد، شاقاً نحو غيبته طريقاً شاقاً بعنادٍ بطولي، غير عابيء بذرات الثلج المنهمرة

بسخاء، كأنها تستخفّ بجنون هذا الشبح الذي تجاسر في موسم المحو ليرمي في وجهها بقفّاز التحدّي.

شبح ذلك المخلوق كان مريم بالطبع. والبغية بالطبع هي الباقة المدفونة بعيداً بعيداً في أعماق الثلج. وعبثاً حاولت أن أقنع مريم بعدم جدوى النزاع، لأن الثلج، في موسم المحو، كابوس لا يُقهر، لأنه سوف يستعيد في حملة الغد، كل شبرٍ خسره في معركة اليوم.

في تلك الآونة من كل عام، تتحوّل الطرقات بين الأبنية خنادق حقيقية، لا تُقارن إلّا بأحافير الجند في برازخ تماس جبهات القتال، لأن ذروة طغيان الثلوج تقلب واقع الأحياء السكنية مساحات عصيّة لا تختلف عن ساحات العمليات الحربيّة. يحدث ذلك حتى في واقع المدن السفلية، بل وفي ظلّ مواسم المحو الإعتيادية، فكيف بواقع الطبيعة الجبلية، وفي مواسم الجنون الإستثنائية، كما هو الحال مع غزوة ذلك العام الذي هوى فيه مؤشّر قياس درجات الحرارة إلى الثمانية عشر درجة تحت الصفر، بدعمٍ موصولٍ من رياح شمالية غربية عاتية كادت تنتحل هوية الإعصار؟

في حملة مريم ذلك اليوم شهد مزاج الثلج تذبذباً مريباً، كأنه قرر أن يتباهى بمواهبه في التلاعب بأصناف الثلج. فقد ظلّ يهوي في مطلع النهار في ذرّات كحبيبات الرمل التي

حاصرتني بها عاصفة رملية ليلية أثناء مقامي بحاضرة الواحات في صحرائي الكبرى. ذرات في حجم الحصى، وقعها على الوجه كوخز الإبر، واندفاع الريح يبعث فيها سطوة مفترسة لا يلبث الجسد أن يستجيب لها بالنزيف. ولكن مارد الريح في مطلع نهار ذلك اليوم لم يستيقظ من غفوته إلّا تالياً عندما استبدل عدّته ليرشق الكائنات بقطع جليدية على هيأة نجوم، مسدّسة الأضلاع، مسبوكة بعبقرية فنّان، كنّا، مع مريم، قد عرفناها مرّة أثناء نزهتنا في رحاب غابة الصنوبر، الواقعة في امتداد العرق الجبلي شمالاً، وتعجّبنا طويلاً من العناية الفائقة التي توليها الطبيعة لمصنوعاتها، كأنها تتعمّد أن تعجزنا عندما تجود بمثل تلك التحفة الفنية الخارقة في دقّة صنعها، الفاتنة في حُسنها: مشذّبة بعناية، نحيلة للغاية في السُّمك، بتساوٍ هندسي فائق بين الأضلاع الستّة، مع وضاعة في الحجم تجعل من القياس على ذاك النحو عملاً من قبيل المستحيل؛ فلا تكتفي بهذا، ولكنها تأبى إلّا أن تضيف لهندستها بُعْداً آخر هو: **التّسديس!** فمن أدرانا أن النجوم في السماء ذات شكلٍ هندسي مسدّس الأضلاع قبل أن تهرع لنجدتنا الطبيعة فتهدينا اكتشافها بالمجّان؟ أم أن هَوَس هذه الكاهنة بالشعر، وكل ما له صلة بعالم الإستعارة، هو الذي ألهمها هذا اللهو الماكر الذي يستطيع وحده أن يهوّن علينا وجود الحرف في حياتنا؟

أليست داهية هذه الكاهنة التي تقتنص الومضة الخاطفة في بريق نجومٍ نعلم أنها كواكب مستديرة الأجرام، لتترجم لنا هذا الإيماء في أعجوبةٍ ملفّقةٍ من قطرة ماء، استوقفتها بسلطان أنفاس الصقيع في مهدها، لتنفث فيها من روح الغيوب شعراً مجسّداً في هبةٍ سماوية مثلثة الأضلاع، كناية عن نجوم تستنزلها لنا لتكون بين أيادينا غنيمة رغم أنف المحال؟

إنها اللغة الإلهية نفسها التي تستعيرها الأرض أيضاً، في علاقتها الحميمة بالسماء، عندما تنبت أوراق النباتات على شكل قلب، لتختزل في هذا الإيماء معجزة إسمها: **الحبّ!**

بهذه الحمم الحميمة رجمت سماء ذلك اليوم مريم في عراكها مع جلاميد الجليد طلباً للوصول إلى القاع الذي اندفنت فيه الأوراق المجسّمة في هيأة قلبٍ يخاطب الملأ قائلاً أن الجمال لا يكون جمالاً ما لم يكن مجبولاً بلمسة حبّ!

مع اقتراب المساء، وازدياد العتمة في أجواءٍ، كانت ملتحفة أصلاً بستور الضباب، استبدل المناخ سهامه المسكونة: بدأ الثلج يهمي بكثافة في نتف ندفٍ مثقلة لا تتناسب في الحمولة مع الإيقاع العجول في أنشودة المحو، كأنّ الطبيعة قررت تعويض الكمّ الثلجي المفقود، بفعل معاول الخلق، قبل حلول الليل. ولكن مريم كانت قد أفلحت في

الوصول إلى معقل لقيتها، لتبدأ ترويض تعاويذها لانتشال الباقة المطمورة من مخالب القبر السحيق. كنت أراقبها من خلف زجاج غرفة النوم بالطابق العلوي الميمّم صوب البستان، في الجانب الجبلي الآخر المتوّج بالغابة التي تتسلّق الجناح الغربي، وكنّا نرتادها دائماً كي نتسلّى بمشهد القنادس الشقيّة وهي تتقافز بين رؤوس الأشجار، فيروقها أن تشاكسنا أحياناً بالطواف حولنا، وهي تتفحّصنا بعيونها الجاحظة، المتلألئة بألقٍ فتّان، حتى إذا لاحظت على الأرض ظلال الصقور، التي تدوّم فوق الغابة بحثاً عن طريدة، استجارت بالجذوع المنيعة لتتخذها سلّماً يقودها إلى عمق الأغصان، لتتخفّى في أعشاش الطير. فالطريق إلى هناك إنّما ينطلق من سور البستان الخشبي، حيث انتصبت مريم في ذلك اليوم الكئيب، مغمورة بالثلج الشره المنهال باستماتة، لتناجي الأعواد العارية، التي كانت بالأمس القريب باقة ورد شهية، ولكن جنون الجليد في دنيا الألب حوّلها رميماً بئيساً جديراً بالرثاء، فلم أجد ما أعزّيها به من موقعي في النافذة سوى أن أذكّرها بالمعلومة التي تغنّت بها الجارات في زمن الصيف، لأن ما جدوى معاندة الحطام إذا كان الهيكل منذوراً بالطبيعة للفناء، ولن يُكتب له في كل الأحوال أن يُبعث من منفاه حيّاً مع حلول الربيع في كل الأحوال؟

تتكاثف العتمة بسبب هجمة مساء الشمال الذي لا يمهل في فصل الشتاء، فيلفظ الأنفاس بغتةً قبل أن يلتقط الناس أنفاساً كتمها كابوس الليل الطويل، ولكني استطعت أن أتبيّن مريم وهي تنتزع قفّازَيها لتمسح قطع ثلجٍ تحوّلت دمعاً سخيّاً بسبب الدفء في أناملها، بعد أن حررت الكيان من الكيس البلاستيكي الذي حضّنت به الباقة الذابلة عندما عبست الأجواء في الخريف لتجرّد طبيعة الألب من سيمائها.

كانت أعياد الميلاد آنذاك تقرع الأبواب. وقد تسابقت المدن في الأسافل في ارتداء الحلل التي تليق بالمناسبة كما اعتادت أن تفعل في مثل هذا الوقت من كل عام، فتهيمن على واقع الشمال الإجتماعي سكينة موسمية عميقة، رغم هوس المناخ، كأنّ حميمية الطقس الديني تلجم استهتار طقس الأجواء، فيطغى دفء النفوس على صقيع الهواء. الورود أيضاً تفقد سحرها في مثل هذا الوقت من العام، لتفسح السبيل لحمّى اقتناء شجرة عيد الميلاد. الحمّى الموسمية للنيل من البيئة، ليستمتع الناس بنزيف الغابات. يكفي أن نتخيّل أن نصيب كل عائلة في العالم المسيحي شجيرة عيد ميلاد لندرك كم هي بليّة في حقّ الطبيعة مثل هذه الأعياد. استزراع الورود سعادة، يقول جاري الحكيم الذي وقف علينا مع مريم مرّة ساعة خروجه للنزهة في حرم الحقول ليكون

شاهد عيان على هذا الطقس المقدّس. فإذا كان استزراع الورود سعادة، فماذا نسمّي أناساً يستمرئون قطف الورد لبيعه في الأسواق على طريقة جارنا المزيّف الذي ظنّ أن الجنسية السويسرية كافية كي تشفع له جرمه في حقّ الجمال؟ وإذا كان قطف وردة خطيئة في حقّ الطبيعة وفي حقّ الجمال، فماذا نسمّي قطع عروق شجرة مثل شجرة عيد الميلاد كي تكون زينة تتوّج عشاء ليلة واحدة حتى لو كانت ليلة ميلاد إبن الإنسان الذي يحتفلون من أجله، كأنهم يتعمّدون الإحتكام إلى الحرف الميّت في تأويل وصية أحد حوارييه القائلة: «ما نستزرعه لا يحيا إذا لم يمت»، ناسين في غيبوبة انهمامهم بالملكية أن دين المحبّة الذي بشّر به صاحب الميلاد رهين ناموس وحدة الكائنات الذي حبانا بالوردة كي نتجلّى في حضرتها، لا أن نعتدي عليها فنقطفها، لأن من يكتم أنفاس وردة اليوم، لن يتردّد غداً في كتم أنفاس أخيه، أفلا يكفي هذا دليلاً أن في كليهما تسكن روح تتنفّس؟

3

الزهرة كيانٌ مقطوعٌ بالسليقة. ولهذا السبب يستهوينا لأننا نقرأ فيه عزلتنا. ولهذا السبب أيضاً تفتننا الوردة في صيغتها المفردة. الوردة المفردة هوية تراجيدية بدليل أننا لا نهديها إلّا لنعبّر عن خطيئتنا. لنكفّر عن خطيئتنا. أما الباقة فمكانها الوحيد المناسب هو التابوت!

بالمقابل تنتصب الوردة المقطوعة حرماً مهجوراً، ولهذا تستدرجنا لندفن فيها عزلتنا، فتتقبّل غربتنا، لتبادلنا بهذه الصفقة غربتها أيضاً. تهوّن علينا غربتنا عندما نحاول أن نهوّن عليها غربتها، فتهرع لنجدتنا، لأن الجمال بسمتها، بل الجمال رسالتها، وفي البيان الرسالي تهيمن سلطتها. ويبدو أنني لم أكن لأحتفي بتلك الوردة المدهشة التي خلعت عليها لقب «الباقة» لو لم تكن بالنسبة لي مجرّد وردة واحدة، مرفوعة على ساق واحدة، متوّجة في الشعفة بفروع متعدّدة، لينتهي كل عرفٍ فيها بوردة، لتتبدّى الشجيرة في المجمل وردة مذهلة، لأن الرأس الذي تتلاحم فيه شعاف الفروع بتلك الحميميّة

التي لا نلمسها إلّا في احتماء البتلات ببعضها البعض في الوردة الواحدة، كأنها تجير بعضها البعض من عدوٍّ مجهول، سيستعير هنا خصال بتلات ممتلئة وثرية وفخيمة، تتلازم في حلفٍ حميم لتنتج رأس وردة خرافية، لا يملك مَن حالفه الحظّ ووقف في مواجهتها إلّا أن يستشعر الإمتلاء الذي لن يكون هنا سوى الإسم المستعار لكلمة «سعادة» التي عبّر بها جارنا الحكيم عندما مرّ بنا أثناء انهماكنا في استزراع الورود.

يروقنا أن نقف في الشرفة لنشاهد ما فعلته الثلوج بطبيعة الأرض من الناحية الأخرى، فيواجهنا الهرم الجبلي الأسطوري الذي يسمّيه السويسريّون «نيزن»، وينعتونه بـ«الغيبيّ»، ليفخروا بتكوينه الهرمي في حجمه المهول، ليبدو في مثل هذا الوقت من كل عام مكسوّاً بالجليد من ذروة الثلاثة آلاف متر حتى الحضيض الهاجع على شاطيء البحيرة. أما هذا العام فكل شيء في هذا الجانب من البيت يغرق في أكفان البيات الشتوي: كل السفوح الواقعة في المسافة الجنوبية الغربية تغطّت لتتحوّل قطعة ناصعة واحدة ببيوتها وحقولها وأنهارها وأشجارها فلا تجد مريم ما تعبّر به عن سويدائها سوى:

- لا أعرف ما الذي اقترفته الأرض في حقّ السماء حتى تقتصّ منها على هذا النحو!

فأجيب:

- وما الذي لم تقترفه الأرض في حقّ السماء؟

ولكنها لا تستسلم:

- لماذا نحمّل الأرض خطيئة إبن الأرض إذا كنّا ندري أنها أيضاً ضحيّة؟

تلوذ بالصمت وهي تتطلّع للجلاميد التي سحقت الأرض التي كانت بالأمس أرجوحة دميتها المنكوبة فكتمت الثلوج أنفاسها ولم يفلح كفاحها في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ثم تضيف:

- الأجدر بأن نتساءل: ما الذي لم نقترفه نحن في حقّ هذه الأرض فتتلقّى القصاص بالإنابة عنّا؟

فأحتال كي أعزّيها:

- في زمن البيات الشتوي لا خلاص لنا سوى بالإنكفاء على أنفسنا والتشبّث بتلابيب الذاكرة!

تصمت قليلاً قبل أن تجيب:

- قد يصحّ هذا لو لم يكن شتاء الشمال ثمانية أشهر كاملة!

كان ذاك منطق إنسان حديث العهد ببيئة الشمال، فلا أملك إلّا أن يعاودني تبكيت الضمير، لأن إنساناً كانت له

الشمس مسقط رأس، كما الحال مع مريم التي دلّلتها شموس الصحراء الكبرى، يبدو قصاصاً في حدوده القصوى أن يُجتثّ من مناخٍ كذاك، ليجد نفسه وقد استقرّ به المقام في أعلى ذروة في شمال أوروبا. أستعيد ذكرى بداية عهدي بمناخ شمال الشمال عندما ألقت بي الأقدار في موسكو في شتاء عام 1970 لأعلم ما معنى أن تتحقق قفزة المحال بالإنتقال من هذا النقيض للسكن في ذاك النقيض دون فواصل أو مراحل، فأستشعر كم جنيتُ عليها إذْ أجعلها تستنسخ تجربتي الإغترابية دون أن أعي. وكي أكفّر عن خطيئتي في حقّها أقترح الجولة الأولى في موسم الفرار. الفرار إلى الأوطان التي لا تغيب عن أراضيها معبودة الأوائل. إنه موسم الحجّ إلى قبلة النور التي تهجع بلا مبالاة على شطآن بحر ليبيا، لتبدو فردوس خلاص رغم محنة إغترابها التي كبّلها بها مسخ إسمه الأيديولوجيا، ولكننا نكتفي بحضورها عزاءً، لأننا لم نتخيّل وجود الأسوأ الذي غيّبها عنّا، لتتوارى عن الأنظار، كما هو حالها اليوم.

ففي الشتاء لا يعود الصقيع هو العنصر الوحيد الطارد من رحاب مملكة الألب السويسري، ولكن غياب ما تسمّيه اللغة الليبية القديمة: «تيط» أي «الحدقة» (كناية عن الزهرة) من عالم الألب هو يقيناً سبب آخر. ذلك أن الأسفار (التي

يروقني أن أحترفها في مثل هذا الوقت من كل عام) إذا كانت توقاً لحرية الجسد، فإن حرية الروح في الحجّ إلى الأوطان التي تظلّ على وفائها لجناب الوردة حيث نستطيع أن نتلو صلواتنا في مثل هذه الفراديس المفقودة في دنيا الشمال. فالحرية هي القياس لوجود الفردوس. وهو ما سيعني غياب الحرية في ربوع الإستقرار، ليغدو السفر الذي سيحمل فيه الإنسان بيته على منكبيه حاجةً وجودية. هذا الأفيون اعتنقته في حياتي ديناً لأني نلته على سبيل الإرث بحكم انتمائي إلى هوية صحراوية كُتب عليّ أن أفقدها مكرهاً، لأسباب لعبت فيها مكائد سادة هذا العالم دور البطولة. ولا حيلة لاستعادتها سوى تحويل العالم كلّه صحراء أخرى، بديلة لصحرائي الكبرى، فعملت كل ما بالوسع كي أستخدمه كمطيّة رحيل. حدث هذا منذ سنوات اغترابي الأولى. أي منذ حلولي في ديار الإمبراطورية التي لا تشرق على أراضيها الشمس، المحتمية بظلمات ما وراء الستار الحديدي، الذي سيهون إذا ما قورن بكابوس الجدار الجليدي الذي يكتم أنفاس القارة تسعة أشهر كاملة، فلا تتفتّح الزهور في واقع هذه الظلمات إلّا لتذبل وتندثر، فلا مفرّ لأمثالي إلّا الفرار إلى أوطان الدفء في الشرق، أو إلى أوطان الرؤى السماوية شمال الصحراء الكبرى، لأداء فريضة الحجّ إلى قبلة الضياء،

والتزوّد بالذخيرة الشمسية، مشفوعةً بنصيبٍ وفيرٍ من الحرية: حرية الحضور في فردوس وردةٍ تتفتّح تحت سماء زرقاء، مغسولة بشعاع من ماء الذهب الذي لا ندرك كم هو قيمة نفيسة إلّا عندما نفقده.

ففي مناخ حوض المتوسط فقط نستطيع أن نتنقّل في شوارع تتدلّى من جدران بيوتها أحراش الشجيرات المنمنمة بفصوص الياسمين، كأنها أكاليل نصرٍ تُطرح في سبيل السابلة بالمجّان، مكافأةً لهم على وجودهم قيد الوجود، لأن ما نفع وجود الجمال إذا عدم وجود كائن ينبهر بوجود جمالٍ في الجمال؟ فلا تكتفي الأحراش بهذا الإحسان، ولكنها تأبى إلّا أن تجود بعطاياها طوال العام، للتدليل على فرحها بحضور عابد إسمه الإنسان في واقع معبودٍ إسمه الجمال. وهو السخاء الذي لا وجود له في بيئة الشمال، كأنّ طبيعة البحر الأسطوري تلقّننا درساً يعزّينا في حمّى مسعانا يقول بوجود فردوسنا الضائع في مكانٍ مّا، كل ما هنالك أن علينا أن نتألّم كما ينبغي كي نستحقّه؛ لأن وجود معجزة كالورود، أو الياسمين، أو كل حدقة من جنس الزهور، رهين وجود ربيعٍ دائم. ووجود الربيع الدائم يعني وجود الفردوس في طينته الدنيوية، لا الغيبية. وإذا كان التوق لارتياد مجاهل المجهول هو الذي قادني إلى عالم ما

وراء بحر الظلمات، بيد أن حنيني للمقام في واقعٍ بيئيّ تتدلّى من جدران شوارعه أكاليل الياسمين ظلّ في حياتي هاجساً لم يفارقني طوال أعوام المقام في أوطان الشمال الذي استغرق عقوداً حتى باستحالة تحقّق الحلم. ولكن الطبيعة الغيبيّة في وجدان مخلوق غيبيّ مثل الإنسان ما لبثت أن أعلنت عن نفسها لأجد نفسي في أحد الأيام، وقد حطّت بي الرحال على شطآن بحري الليبي الرومانسي الذي تغنّيتُ به طويلاً، لا لأمجاده أو لعظيم أفضاله على الجنس البشري وحسب، ولكن أيضاً لأنه امتدادٌ لبحرٍ آخر، كان لي مسقط رأس، ومهد تكوين، وأحجية وجود، كل ما هنالك أنه يبيس، وسرّ إعجازه في هذا اليبيس، لأن باليبوسة حقق لنا ما نسمّيه بلسان اليوم وجوداً. إنه الصحراء الكبرى. أما المقام فهو على الشطآن الأخرى، الإيبيرية، من بحر ليبيا، التي تهفو من هذا الجانب وتتطلّع للحلول في فردوسها الضائع الذي يسكن الجانب المقابل. والأقدار قادتني لتسكنني هذا المكان تلبيةً لنداء الدم، لأنه لم يكن منذ الأزل سوى وطن أسلافي، واستجابةً أيضاً لنداء الحلم الذي لا يخيّب ظنوننا فيه أبداً إذا أحسنّا أن نحلم كما ينبغي، ونحتمل دفع المكوس المستوجبة لتحقيق أي حلم كما ينبغي، ونستودعه خزنة النسيان لنمهله المهلة المستحقّة كما ينبغي، لأن

الأحلام ليست سوى أجنّة الروح التي تنتظر الوقت المناسب، والمكان المناسب، كي تتحرّر من الحِمْل، وتضع في حضيض الدنيا جنينها، ليكون في الأرض بَصْمَتها. تلك البذرة المبثوثة في رحم الإرادة، الملقّبة باسم الحلم، لم تكن الأمل الوحيد الذي ارتهنته في خزانة الذاكرة، ولكن سبقتها بذرة أخرى كانت لي جنّة الطفولة التي هدهدتها في قلبي طوال منازل اغترابي، ولم أصدّق يوم انتصبت في وجهي في أحد أسواق الحاضرة السويسرية في أحد أيام فبراير من عام 1993، أي بعد حنين وجيع استغرق أربعة عقود، أي منذ انتزعتني الأقدار من عش صحرائي لترمي بي في المنافي. تلك كانت تاج نباتات أعظم صحاري العالم وأكثرها جمالاً واكتمالاً: **الرّتم!**

شجرة الرتم حسناء البريّة بلا منازع. دقيقة الأغصان، ولكنها كثيفة، ومهدّلة الخصلات إلى الأسفل على نحوٍ يجعلها جديرة، في انكسارها الباكي، بلقب صفصافة الصحراء الكبرى، فيروي دهاة القبائل كيف باغتها الإلهام يوماً في محفل الأشجار ليوسوس لها بنبوءة تقول أن ربيع البريّة فردوس فانٍ، واليبوسة التي كانت للخليقة أرجوحة تكوين ستستحيل يابسةً، في زمن الفطحل الذي كانت فيه الحجارة مازالت رطبة، لأن مردةً أشقياء سيستبيحون يوماً

ترابها البكر، ويمتصّوا المياه من الينابيع، فتجفّ عروقها، لتغدو صحراء خاوية، فاختنقت شجرة الرتم بالغصّة، ونكست رأسها فزعاً، لتنطلق بعدها في نوبة نواح أبدية، حزناً على فردوسها الضائع، ولم ترفع رأسها لتنظر في عين الشمس، منذ ذلك اليوم، استحياءً؛ ولم تجد ربّة الأرباب «تانيت» ما تكافئها به جزاء مناحتها سوى أن أجارتها من هول الظمأ لتحيا نضرةً، خالدةً، رغم أنف الجفاف، أبد الدهر. ليس هذا وحسب، ولكنها استودعتها فصوص زهرٍ خرافية ذات عطرٍ لا يشتمّه مخلوق إلّا وأصابه المسّ!

ويبدو أن هذا المسّ هو الذي سرى في دمي فاختزنته في الذاكرة ليصير لي في المنافي زاداً لم يحدث أن استعدته مرة إلّا وانتابتني نوبة وَجْد، ولم أجد مفرّاً من الإحتيال عليه بالحلم، لأن كل الأوطان التي عبرتها خلال هذه المراحل في كل القارات، كانت تعدم وجود شجيرة مسالمة، تبدو باستحياء العذارى، منكفئة على نفسها، كأنها تستغرق في تأمّل هويّتها، مكتفيةً في عزلتها بنفسها، تُروّض مرثيّتها، حرصاً منها على عذريّتها؛ ولكنها برغم كل هذا، تنفث في الأجواء سحر كنزها، المبثوث في فصوصٍ ناصعة البياض، دقيقة الحجم، خماسية الأضلاع، لأن التخميس منزل الذريّة، والذريّة نماء، والنماء هو التحدّي في دنيا يهيمن

عليها الجفاف، أي أنه نقيض منزل التسديس، بوصف التسديس، في حكمة الدهاة، إيماء للداء، والدّاء مفتاح الفناء!

ولكن.. باقة الرّتم التي طالعتني في أسواق الحاضرة ذاك العام خيّبت ظنّي بجنس الرّتم، لأن عطرها نفحة لم تصبني بالدوار، فكيف بشطحة الوجد التي اختزنتها في ذاكرتي، كأنها تميمة، طوال هذه العقود؟

عودة إلى الوراء. تفرّغٌ لاستحضار الرؤيا: عائلة تحطّ الرحال على مشارف الحمادة في امتدادها جنوباً. التاريخ: منتصف خمسينيات القرن العشرين. الفصل: منتصف الربيع. الوقت: منتصف النهار. المكان: منتصف المسافة الفاصلة بين مرتفعات الحمادة والسفوح التي تهوي نحو واحات «تارجا». كل شيء في الواقع يبشّر بخير، لأن الإنتصاف هو برزخ المعادلة العادلة حيث تسكن السعادة. الفتى أيضاً يحيا مرحلة المنتصف، لأن السنة السابعة من العمر هي الحدّ الواقع بين الطفولة والفتوّة. وها هو يترجّل من البعير وينطلق ليستكشف المكان كما اعتاد أن يفعل كلّما حطّت به الرحال في موقعٍ جديد، منتهزاً فرصة إنشغال الأبوين بمعركة نصب الخباء. ينسلّ ليتفقّد الجوار. في الجوار تهيمن طينة الحمادة الحمراء. في المدى تجلّى بساط الطينة الحمراء المكسوّة

بجنس الحجارة المسطّح كأنّ الطبيعة الشمالية شذّبته خصّيصاً في صفائح لميسة كي يخفي نسيج بساطها الفاتن عن الأنظار. في الجوار يستلقي قاع مسطّح أيضاً كأنه في امتداده طبق هائل الحجم. في جوف هذا الطبق تبعثرت نباتات شحيحة لوّحتها الشمس بالشحوب. في المسافات بين نبتة وأخرى تراءت العطايا السحرية برؤوسها الأسطورية كأنها فخاخ لاقتلاع الأرواح. كانت تلك قُلاع الكمأ: الكمأ في هويّته التي آثرت أن تتقنّع بالبياض فأطلّت بطرابيشها لتستدرج بفتنتها ضعاف النفوس، لتقودهم إلى اللامكان، حيث يستطيعون أن يلفظوا أنفاسهم، ويتنصّلوا من أجرامهم، لأن اللامكان هو حرم الحرية!

ينحني ابن السابعة أيضاً ليلتقط من الغنيمة نصيباً. يملأ حجره، ويمدّ يده ليتناول قطعة بدينة، ممهورةً بالأحاجي التي اختطّتها الشمس على رأسها بمهماز اليبوسة، ليستنشق عبيرها. يخترق العطر فتحتي الأنف لينفذ إلى المجهول فيصيبه الدوار ويترنّح في سعيه. ولكن الإحساس المبهم الذي يسري فيه يفوق لذّة العبير، لأن عليه أن يحيا أعواماً كثيرة، ويسمع من حناجر الصبايا لحوناً شجيّة كثيرة، كي يدرك للإلهام إسماً هو الشجن، أو الحنين، أو التوق، أو أيّ إسمٍ آخر من هذه الطينة. يتحامل على نفسه ويمضي. يقطع مسافة أخرى قبل أن

يهوي السفح. يهوي لينتهي إلى شقّ احتفرته الغيوث على مرّ الأزمنة. وكلّما مشى في الشقّ مسافة أبعد كلّما ازداد الشقّ سعة إلى أن يتحوّل إلى وادٍ في النهاية. في قاع هذا الوادي الوضيع انتشرت هياكل نبوت ليست بشجرة كالطلح أو السدر، وليست بعشبة كالقصيص الذي تنمو في محيطه ثمار الكمأ. إنه أيضاً كان وسط. كيان ينتصر لدين المنتصف مثلة مثل كل الأشياء النفيسة في دنيا الصحراء. هذا الكيان هو الرتم. هو النبات الكثيف الأغصان، المهدّل الخصلات كأنّه ينوح ندماً لأنه تجرّأ يوماً وتعالى. تجرّأ وحدّق في عين الشمس، لأنه أراد أن يعلم من الشمس لماذا جعلت من ربيع الصحراء نعيماً فانياً. لم يعلم أحد بالطبع الجواب الذي تلقّته من الشمس في محفل الشجر. ولكن لا أحد ينسى انكسارها، الذي عبّرت به في هيأتها لتجسّد بكيانها نواح الأبد. كل ما علمته الكائنات من ذلك الدرس هو أن القصاص رهين الفضول دوماً. . لأن أخطر الأشياء في عرف السماوات العليا هي: **السؤال!**

ولم يتخيّل إبن السابعة أن يصاب بالعدوى، بحلوله في أرض الرتم، فينال القصاص ما أن مَثُلَ في ربعها. فقد تنسّم نفحةً منفوثةً من أنفاس فصوص زهر الرتم الذي اكتسى الأعراف النحيلة في عناقيدٍ سخيّةٍ أطاح بالأعراف من فرط الثراء، فلامست الأرض البكر، المطروحة تحت الشجيرة،

المنمنمة بآثار الخنافس والفئران وبعض أجناس الطير؛ تلوذ بحماها أسراب النّحل حتّى تكاد تحجبها عن الأنظار.

عاند دواراً قبل أن يغترب بغيبوبة. غيبوبة باتت في ذاكرته رحلة في حلمٍ فتيّ، تمنّى ألّا يعود منه أبداً، حتى أنه عندما استيقظ كان غيهب الغروب قد استوى ليهيمن على الصحراء.

فبأيّ حقّ يقارن رتم السوق في حاضرة سويسرا، برتم فردوسه المفقود في الصحراء الكبرى؟

تساءل مراراً عن السبب، فكان جواب أهل العرفان يتحجّج بنوع التربة، ولكنه وحده يعلم أن السرّ يسكن بُعْداً آخر، فكما لا يستوي الذين يعلمون والذين يجهلون، كذلك لا تستوي الأرض التي تنهل من فيوض الينابيع وغوث الغيوث على مدار العام، بالأرض المحرومة من سلسبيل الحياة، لتتلقّى سياط شموس الأبد منذ عصر التكوين، ولكنها بهذا الحرمان نالت إحساناً: بالحرمان اختزنت ذخيرة النار لتكون لها في سفر الوجود قوتاً لم تبخل به على مِلَل الأنام!

4

ميعاد حلول الربيع في مملكة الألب يحلّ في شهر مارس، ولكن ملحمة الكرّ والفرّ في مناخ هذا الجزء المميّز من عالم الطبيعة في الشمال تتواصل حتى شهر يونيو. يكتمل انحسار الثلوج عن المناطق الأقصر قامة، كما هو الحال مع غولديفيل، ولكن شعاف السلسلة الأعلى، التي تواجه موقعنا في تحدٍّ سافر، تتشبّث بنياشينها الناصعة على مدار العام. فما أن تبدأ الكتل الجليدية في الذوبان حتى تطلّ الأزهار من منافيها تحت الركام باستحياءٍ مجبولٍ بفضول، كأنّها في طلعتها تستطلع المكان لتتيقّن عمّا إذا كان الخلاص نافذ المفعول، أم أن الإنفتاح مجرّد فخّ للإيقاع بكائنات المكان التي كثيراً ما خدعها الإنفراج في مزاج طبيعة المفاصل في الفصول، فتغدو ضحيّة ثقتها في الطلائع. ومع ذلك لا تملك الكائنات إلّا أن تحتفي بميلادها وهي تندهش لمرأى أرض اغتربت عن الأرض شهوراً حوّلتها كآبة الشتاء أمداً يطول في

نظر الخلف جيلاً، ليستشعروا بظهور الأرض، ورموز الأرض، من عشب أو طين أو حجر، أنهم حقّاً نزلاء أرض، وقيد وجودٍ شكّكوا في وجوده، بدليل وجود طير على الأغصان اليابسة يغرّد، ووجود زهر يتسلّل برأسه من أنقاض العشب، ليتطلّع إلى شمسٍ بدأت تصفو وتتحرّر من غمّها، ليتيقّنوا من ميلادٍ رهين ميلاد يبوسة أرض، فيهرع الجيران لاستصلاح أشبار بساتينهم التي عبثت بها الثلوج، كأنهم يستجدونها الغفران جزاء جنون طبيعة العام، ويعبّروا لها عن تصميمهم لافتداء آلامها بلمسات أناملهم، ويمحوا آثار العدوان بقلوبهم! فكلّ عُطل نهاية الأسبوع، التي تلي نزيف الجليد، تغدو في ربوع الألب عيد أصحاب البساتين، لأنه مفتتح حملاتهم السنوية لاستعادة فراديسهم الصغيرة من رحلة ضياعها الموسمية. أقول بساتين مجازاً في الواقع، لأن تلك الأشبار التي تُستقطع لتكون للمواطن متنفّساً للإبقاء على علاقة الإنسان بمحيطه الطبيعي، لن تكون جديرة بهذا الإسم الجليل الذي كان منذ الأزل رديفاً، في منطق المخلوق البشري، للنعيم قبل أن تتضعضع صلته به بالإنفصال عنه ليستعير صفةً صارت لصيقة بالإسم وهي: الضائع، دون أن يجرؤ هذا المخلوق على الإعتراف بذنبه في سيرة هذا الضياع، لأنه هو مَنْ خان الطبيعة، وليس أمّ الأمّهات: الطبيعة.

وإذا كنّا نبيح لأنفسنا الإستهانة بمثل هذه الأشبار لا لشيء إلّا لأننا نشأنا في أوطان صحراوية ذات مساحات شاسعة، قادرة أيضاً أن تتحوّل بساتين فيما لو أحسنّا استصلاحها، بيد أننا لا نملك إلّا أن نحيّي السلطات القائمة على أمر الإنسان السويسري لحرصها على استقطاع هذه الأشبار لتكون ملجأً لكل صاحب سقف قام على أرضها الصغيرة، سواء في سكن أرضي، أو في شقّة ببنيان متعدد الطوابق، وَعْياً من هذه السلطات بأن قطعة الأرض حتى لو كانت أشباراً حقيقية، هي العشّ الذي سيحتضن هذا المخلوق الذي لم يصر له الشقاء حميماً إلّا بسبب اغترابه عن حضن هذه الأمّ الرؤوم. وإذا كنّا نستصغر حجم القطعة، بمنطقنا الصحراوي، فإنه بمنطق وطن لم ينل سوى النصيب الأقلّ من حصة المساحة في كل أوروبا، هو في الواقع بَراح. براحٌ مرّتين، لا مرة واحدة: براح بسبب ضآلة مساحة الوطن أولاً، وبراح بمنطق طبيعة البيئة الجبلية ثانياً. هذه الجبال المهولة في الإرتفاع، الهائلة في الحجم، القاسية في التكوين، العصيّة في التضاريس، الشرهة في التهام الفُسَح السهلية، الشرسة في قطع دابر حتى الوديان، لا تكتفي بهذا الشحّ، وبهذا البخل في العطاء، ولكنها تُجبر إبنها على أن تكون له فسحة لاستصلاح الأراضي للفوز بالقوت، تماماً كما تكون له مساحة لمستلزمات المقام،

وفضاء لطُرق التنقّل، وفوق كل هذا: همزة وصل في شبكة أنفاق، مستقطعة من لحمه البكر، ليربط بها قلب أوربّا بالمجّان، كأنّ طبيعة هذه الأعجوبة تأبى إلّا أن تلقّن عالمنا الجشع درساً يقول أن العطاء ليس رهين الوفرة في الملكية، ولكنه رهين **ثراء الروح**، بدليل أننا نفقد ما ننال، ولكننا ننال ما نهب! وأكثرنا عطاءً هو مَن أعطى ما لا غنى له عنه، والأعظم منه شأناً هو: **من استطاع أن يعطي ما لا يملك أصلاً!**

سويسرا لا تكتفي بأن تربط قلب أوروبا بالأنفاق التي تخترق كل الألب، ولكنها تغدق على هذه الأوطان (ألمانيا، وفرنسا، والنمسا وإيطاليا) بالأنهار فتغرقها بما يفيض عن حاجاتها من مياه نقيّة مجّاناً أيضاً، دون أن تكلّف نفسها عناء الدخول في صفقات مع سلطات هذه البلدان، عملاً بحكمة إسمها: **الحياد!** والحياد لم يكن ليكون حكمةٍ لولا هويّة المُشاهد الذي يقف رقيباً على الوجود من علٍّ. لأن مَنْ يشاهد المهزلة أفضل وضعاً من آخر آثر أن يلعب دور المشارك في المسرحية الهزلية، لأن في موقف المشاهدة تكمن ثلاثة مزايا بالمقارنة مع موقف المشارك: كالقدرة على استخلاص حكم، وتجنّب جراح أثبتت التجربة أنها قدر كل من ارتضى المشاركة، وأخيراً الإستمتاع بتأمّل **اللعب!**

فالطبيعة هي التي اختارت سويسرا للحياد عندما نصّبتها ملكةً متوّجةً على عرش قمم الألب، لتوحي لها بوجوب تعزيز هذا المجد باعتناق دين الحياد على مستوى العلاقات الدولية أيضاً.

5

في حمّى العناية بالبساتين شاهدتُ من الشرفة كيف بدأ الهرّ «أوتمان» حملة تطهير رقعته الأرضية أيضاً، فآلمني مرأى اجتثات شجرة الورد التي استحالت أعواداً جرداء بلا أمل في بعث الحياة فيها من جديد، وآلمني أكثر أن يخيب ظنّ مريم بتحفتها بعد كل الكفاح المستميت الذي خاضته مع شبح الثلوج طمعاً في أن تجيرها من المصير المشئوم الذي تنبّأت به الجارات. فالورد، في عرف العالم، بطل تراجيدي بالسليقة. بطل تراجيدي على الرغم من هويّته الرمزية التي تختزل في كيانها معنى ببعدين: جمالي وروحي. فعندما نقوم بتقديم وردة على سبيل الإهداء فنحن لا نكتفي بأن نهدي شفيعاً هو الجمال، ولكننا بهذا الفعل نستجدي أيضاً غفراناً. نستجدي غفراناً يتضمّن فحوى أخرى الحبّ فيها شهادة غيبيّة. شهادة غيبيّة هي غنيمة الروح، ناسين في حمّى هذا الطقس المركّب الأبعاد، أن الوردة التي نطرحها عند أعتاب المعبود كقربان

فقدت وظيفتها، لأنها لفظت أنفاسها على أيدينا، ولم تعد كياناً يتمتّع باستقلالٍ تُحقّق به حضوراً في واقع يسمح باستنبات الجذور. أي أنها وردة مقتطفة. وردة عديمة الجذور. وردة ميّتة، سواء أكانت معزولة في نكبتها، أو التأمت في باقة. قد تحتفظ في نظرنا بهويّتها الرمزية التي قامت من أجلها، ولكن منطق الوجود، بعد الآن، سينفي فيها أي انتماء، ويكتفي بمعاملتها كشهادة على جريمة. جريمة ارتكبناها نحن في حقّ الجمال، وفي حقّ الروح، ولا مفرّ لنا إلّا أن نكفّر عن هذه الخطيئة لنضيفها إلى الخطيئة الأولى التي لم نستقطع الورد من منابته إلّا للتكفير عنها، لأن التوبة حرمٌ منيع هيهات أن تشتريه خطيئة مركّبة. إذا كان إهداء وردة عملاً محفوفاً بالخطر، فكيف نصفُ عمل إنسانٍ حوّل إماتة الورد على نطاق واسع مهنةً ربحيّة، كما هو الحال مع الشقيّ «أوتمان»؟ ألم تتحوّل هذه الخطيئة لعنة حقيقية في حياة هذا الرجل، وما الكراهة المترجمة في مسلكه سوى الدليل على هول أن نحيا بقوتٍ ملوّث بنزيف الورد؟ وما هو نزيف الورد إن لم يكن نزيف الروح؟

فكيف نطمئن إلى مخلوقٍ يقتات بنزيف الروح؟

ولكني تساءلت مراراً في تلك الأيام عمّا إذا لم يكن تسويق الباقة المشفوعة بالجذور، صفقة للتكفير عن آثام نزيف

الروح السخيّ، الناجم عن استيراد ملايين الورود المكتومة الأنفاس من هولندا، لتصريفها في أسواق سويسرا من قبل السيد «أوتمان» أو أمثاله من تجّار الورود.

بعد اكتمال ذوبان الجليد تحبس الطبيعة أنفاسها في مملكة الألب. تجود بزهور مطلع الربيع، ثم تنتظر. انتظار يبدو دائماً مزموماً، لأنها لا تثق بهيمنة الخلاص طويلاً. تصفو السماء حقّاً، وتسطع الشمس المفقودة أياماً، ولكن التوجّس يستغرق أمداً طويلاً، فتتشبّث الأشجار بكنوزها، ولا تجرؤ على إبراز فصوصها النفيسة من مكامنها إلّا مع مطلع شهر مايو. في تلك الفسحة تحتدم حملات الكرّ والفرّ في الأجواء، ولكن أهل الألب لا ينتظرون حلول الكمال المأمول في طبيعة يدرون مدى تقلّب مزاجها، فيستميتون في إصلاح أمر بساتينهم المتواضعة رغم غزوات الرياح الشمالية المحمّلة بالحصباء الجليدية المعادية، يقيناً منهم بأنها ليست سوى محاولات يائسة من خصم عنيد يلفظ أنفاس النزع الأخير.

مريم أيضاً انتهزت فرصة حلول ميعاد مولد الكائنات فحامت في البستان مع جاراتها لتتفقّد مصير شجرة الورد التي تحوّلت على يد كابوس البيات شبحاً لهيكل ملفّقٍ من أعواد نحيلة أحزنتني ما أن وقع عليها بصري، وأدهشني أن تنتمي لذلك القفص الخفيّ الذي أبدع فروة الفتنة، فشيّعها

في الفضاء عالياً، كأنه يباهي بها سلالات النّبات. ولكن العزاء أن الهياكل هي قدر الخروج من غياهب كلّ بيات شتوي. فالأشجار في هذا الوقت من العام كلّها هياكل. كلها عيدان حطب. فلا يصدّق من يراها أن تتعافَى هذه الأشباح من عللها العضال فتُبعث أشجاراً من جديد. وهو ما لا يحدث في مملكة الألب قبل منتصف شهر مايو، في حين تبدأ مسيرة البعث في مناخ الأسافل مع مطلع الشهر، لأن بعبع الجليد الذي يرابط في الأعالي طويلاً يبقى شبحاً يفزع النّبوت، فتستجير بحصونها الخفيّة أمداً أطول، خوفاً من بطش التنّين.

على هذا العرف، في بيئة الألب، راهنت مريم كي تستعيد باقتها من رحلة إغترابها. ولكن هيهات! فقد تنامت أنواع الزهور في عشب الحقول، وأورقت أشجار الغابات على مناكب المرتفعات، وأينعت الفصوص في الأحراش التي تطوّق شطآن الأنهار بالجوار، ولكن كلمة السرّ في مارد الدفء لم تفلح في استنطاق اليبيس في أعواد الباقة المنكوبة. وعبثاً حاولت مريم بعث الفقيدة من منافيها بصنوف الأسمدة الإصطناعية، أو بأنواع العقاقير المستخدمة في مثل هذه النكبات. انتظرنا حتى حلول الصيف، ولكن بلا جدوى. لم أجد بعدها ما أهوّن به عليها لانتشالها من المحنة سوى

مرافقتها إلى رحاب «شومبول» مرة أخرى لاستطلاع عمّا إذا ظهرت في أسواق البستنة هناك تلك الطريدة التي تصيّدتها منذ زمن، لأنها سحرتني عندما طالعتني صورتها في إحدى المجلّات الإعلانية، فخرجت في طلبها ولكنها كانت قد نفدت من الأسواق: إنها الشجرة الوردة التي تفتّقت عنها العبقريّة اليابانية المهووسة بالجمال المسمّاة: **بونساي!**

6

بونساي مفردة يابانية ملفّقة من شقّين: «بون» التي تعني «الطبق»، أو «الإناء»، و«ساي» الدالة على «البستان»، أو «البستنة»، كناية عن حشر هوية بستانية في إناء، واستجلابها من موطنها لتحلّ ضيفاً علينا، نحن الأنام، كي تشاركنا دنيا اغترابنا عن الطبيعة في قمقم البيت، ظنّاً منّا أننا نستطيع، بهذه الحيلة الصبيانية، أن نستعيد فردوس طبيعتنا الضائع. إنه التعبير المجازي عن حلم العودة إلى تلك الجذور التي ظلّت تنزف فينا منذ استأصلناها قرباناً للحرية، ولكننا لم نهنأ بهذه الصفقة التراجيدية، لأننا استهنّا بنداء الطبيعة فينا، ولم ندرك أنه المارد الذي لا يُهزم إلّا بعد فوات الأوان. فالتوق الطفولي للتحرّر من سلطان الأم هو ما دفعنا لأن نستسلم لإغواء المدى، ونلوذ بالفرار. ويقيننا الخفيّ باقترافنا خطيئة في حقّ الأمّ هو ما جعلنا نبتني البيوت لا لنؤكّد على حرّيتنا وحسب، ولكن لنستجير بها من غضبة الأمّ، ونسينا أن جرثومة الأمّ

دسيسة تسري في الدمّ، ولا سبيل للخلاص منها إلّا بالفرار إليها، لا الفرار منها.

وها نحن نحاول أن نكفّر عن إثمنا التليد باستيراد رموز أمّنا الرؤوم في أقنية مضحكة كأننا نستعطفها برشوة، ولا ندري أننا بهذا العمل الصبياني إنما نؤكّد بأننا مازلنا أطفالاً، تماماً كما كنّا في عهد التكوين، كل ما هنالك أننا فقدنا في هذه الرحلة سجيّتنا الأولى، فقدنا فطرتنا الأولى، وانتحلنا بالمقابل خبثاً، احتلنا فسمّيناه دهاءً، مكّننا من أن نحتال على الأشياء فنختلق لها ظلالاً، كأنْ نلفّق شبيهاً لكائنات الأم التي هجرناها ونَنصّبه في سجوننا معبوداً، متعمّدين أن نخدع أنفسنا ونتجاهل هويّته المنكرة كبعبع خاوٍ من الروح. وعلّ أفضل ما حققناه في علم التجديف في حقّ الأمّ، وفي حقّ الحقيقة، هو ما توصّلنا إليه أخيراً: وهو انتزاع رموز الأمّ، من حضن الأمّ، وتبنّيها في سجوننا الخانقة كذريّة شرعيّة، علّ هذه الحيلة تشفي غليلنا، كأنّنا نرفض أن نعترف بيننا وبين أنفسنا بأنّنا أضعنا فطرتنا، ولم نعد أطفالاً منذ زمنٍ بعيد. فنحن مازلنا على ديننا في الإنتماء إلى طينة الأمّ، ولكن العودة إلى هذه الطينة رهينة القبول بقدرٍ إسمه الجذور: جذورٌ ننقاد إليها بسليقتنا، ولكننا نخشاها، لأنها تهدّد حريّتنا، لنغدو بهذا الإزدواج في المنطق طريدو أرض،

ومشبوهون في نظر السماء؛ فبأيّ حقّ نستنكر أن نوصف باللقطاء؟

ولكن ما يشفع لنا هوية اللقطاء هو إيماننا بأن الحرية، التي اغتربنا عن الأم بسببها، حلمٌ عديم الكمال، ما لم تسعفنا الطبيعة بنفحةٍ من أنفاسها الزكيّة، لنستحضر في هبتها معبوداً إسمه: **الجمال**.

في حضور الجمال فقط تتحقّق حرية الحدود القصوى.

7

عدنا من حملتنا الأولى بغنيمة واحدة، وعندما استحسنّاها قمنا بغزوة أخرى إلى مستودع البستنة لنأتي لها برفيقة، شفقةً عليها من بعبع العزلة في محيطٍ بيئيّ موحش كالألب السويسري.

كانتا كلتاهما من سلالة «بونساي»، محبوكتان بأنامل مسكونةٍ بعشق الجمال، وبعشق الطبيعة التي تلهمنا بوجود الحقيقة في الجمال. إنها اللّمسة الشعرية في عجين المادّة الحسّية، التي نستعيد بها الإيماء المنشود، في بُعْدٍ منيعٍ هو بالطبيعة مفقود، مثله في ذلك مثل الحجر الضائع في البستان الفلسفي الياباني الذي نعلم بوجوده في أرض البستان، ونستطيع أن نراه فيما إذا غيّرنا موقعنا، ولكنّنا سوف نفقد في المشهد حجراً آخر بهذا التغيير، ليظلّ غياب حجرٍ مّا، في مكانٍ مّا، هاجسنا الأبدي طوال حضورنا في رحاب البستان. وهو ما يعني أن وجود الحقيقة رهين موقعنا منها، أو

بالأصحّ، رهين موقفنا منها، ونفينا لها لا يعني غيابها في الواقع، كل ما هنالك أن علينا أن نستبدل موقعنا كي نراها، أي أن نغيّر ما بأنفسنا كي نكتشفها، لأنها بالطبيعة تتحوّل مستسلمة لإغواء الأقنعة. هذا لا يعني أن العقلية اليابانيّة يمكن أن تستبيح الحسّ، أن تحطّ من شأن الحسّ، بل الصحيح هو العكس، وعلّ غنيمتنا الأولى هي الشاهد على ذلك: فالجذع في الشجيرة جرمٌ مفتول في كتلة من لفافات تتآلف في عقدة بالأسفل، ثم تتداخل في عناقٍ حسّي محموم في البرزخ، قبل أن تستعيد وحدتها في العنق الذي تفزّ منه الفروع، كأنها عروق مستنفرة، لينتهي كل عرق بفروة أوراق تنكفيء حول نفسها في تيجانٍ حميمة. من هذه اللحمة المزمومة الملتئمة في أنشودة الطقس القدسي الأعلى تنبت في أسفل الأسافل الجذور التي تنطلق في فتلةٍ نهمةٍ موحيةٍ لتطفيء لهيب شهوتها بالغوص في طين الإناء.

ولكن هل يتنازل سلطان الحسّ عن كبريائه فيخلي سبيل الفتنة في حرف كتلة السيقان التي يلتفّ فيها هذا الساق على ذاك الساق، وتتنادى كوكبة السيقان لتتحاضن بهذه الحميمية المحمومة، لتؤكد الإغواء في جسدٍ أملسٍ، على نحوٍ يحوّل البروز في الساق، بالتفافه بالساق، شهادةً في العشق، ونشيد مديحٍ في حقّ العناق؟

ولكن بتأمّل الإنكسار في إنثناء العضو الذي اعتمدناه في الصفقة كساق، ومع تفحّص الفخامة في حجم العضو الآنف، النابض بالشهوة، سنكتشف أننا في حضرة فخذةٍ بضّةٍ، تستبسل في انكفائها على قريناتها، كي تخفي مثلث الحرام القابع في موقعٍ مّا، محتجباً بالإلتحام، ولكنه، رغم الإحتجاب، لا يكفّ عن الهتاف بالنّداء: نداءٌ يجاهر بهويّته كشرك، ولكنه يستعير شفاعة من الطبيعة التي سخّرت الحسّ كي يحقق حبّاً لو خلا منه العالم لا نعدم فيه وجود المريد الذي يتلو صلاة الوَجْد في حرم معبود الحدود القصوى: **الجمال!**

ربّما لهذا السبب تبدّت الـ«بونساي» في حضن مريم يوم اقتنائها كطفلٍ رضيع يلوذ بصدر الأمّ.

8

نزول بونساي ضيفاً علينا في ديار الألب خفّف على مريم كابوس غياب الحياة في عيدان الباقة المنكوبة، فكان يروقني أن أراقبها وهي تناجي الشجيرة، المنتصبة في إناء الفخار كأنها راية نصر، مطلع كل صباح. تروي ساحتها بمياه الينابيع من أنبوب خاصّ لئلّا يجرح تدفّق الماء شبكة العروق النافرة، ثم تحتضنها في طريق الخروج بها إلى حرم البستان لتستنشق أهوية الجبال، وتحصل على نصيبٍ من شموس الصيف.

تستبقيها هناك حتى المساء لتعود بها إلى جوف البيت من جديد. رحلة الخروج والدخول صارت في الأيام التالية طقساً يوميّاً استمرّ إلى اليوم الذي باغتتنا فيه غيمة همجيّة بسياط غيثٍ عنيفٍ ما لبث أن انقلبَ بَرَداً شرساً كقطع الحجارة، كأنّ طبيعة الألب أبتْ إلّا أن تذكّر بسلطانها الجليدي على الكائنات حتى في فصل الصيف، فتَرجُمُنا من حين لآخر بحجارة من صقيع. وقفنا نراقب من النافذة الهجمة وهي تكنس السابلة من الشوارع المجاورة، وتجلد الأرض بأحجارها الهمجية الناصعة، فتسلخ

أوراق الشجر، وتُجهض بتلات الزهور في البستان بلا رحمة. و.. فجأة وقع بصرنا على شجيرتنا الشقيّة.. كانت تبدو، في وقفتها على حافة الصلد الذي يؤدّي إلى ربع البستان، مهجورةً، يتيمةً، ضائعةً، خذلناها بغفلتنا، فنزلت عليها من السماء حمم ذلك القصاص الغيبيّ الذي كان قدر كل كائنات الأسافل إذا عَنَّ لها أن ترفع رأسها عالياً! هرعنا لنجدتها في الحال، ولكن بعد فوات الأوان، لأن كرات الصقيع المسعورة كانت قد انتهشت الأوراق في قممها وأصابتها بجراح. جراح عميقة أخفقنا في تضميدها طوال سنوات كاملة، بدليل وجود آثارها على فروتها حتى لحظة تحرير هذا البيان، لأن بونساي رافقتنا في ملحمة فرارنا إلى جنوب القارّة العجوز يوم ودّعنا الألب بسبب الصقيع الذي لازمني في شرق أوروبا ووسطها منذ خرجت في طلب البُعْد المفقود في أحجية الوجود، دون أن أتخيّل أني استبدلت ناراً برمضاء، لأن صحرائي الكبرى كانت لي جنّة صُغرى بحضور فحوى لم أخمّن كم هي قيمة لا تقدّر بثمن، ولم أكتشف لها إسماً إلّا أخيراً، وهو: **الروح**، في حين لم أجد العالم الذي هدهدته في أحلامي، يقيناً منّي بأنّه الفردوس المنشود، لأدرك تالياً أنه بـ **غياب** هذا اللغز بالذّات، الذي سمحت لنفسي بأن أسمّيه روحاً، هو في الواقع ما يحيل العالم جهنّماً كبرى!

9

ولكن حضور الشجرة الحاملة لخصال الوردة وماهيّة الشجرة معاً، في بيتنا، مسكونةً بروح صريع الجمال الياباني ياسوناري كاواباتا، لم تفلح في أن تُنسي مريم باقتها في البستان، فواصلت الطواف حولها، ومساءلة الجارات عن السبيل لبعثها إلى الحياة من جديد. كنت في تلك الفترة قد فاتحتها مراراً باستئصال هيكل الباقة لإخلاء المكان لاستزراع نبتة أخرى، ولكنها كانت ترفض المقترح في كل مرة، بل واستنكرت الفكرة واستأنفت محاولاتها في حقن الجذور بمختلف الأسمدة الطبيعية والإصطناعية عملاً بوصايا دهاة البستنة الذين كانت تستشيرهم في شأن النكبة التي حلّت بالباقة كلّما تنازلت عن مقامها المعلّق في الفضاء، وحطّت بها الرحال في ربوع المدينة التي تتوسّد شطآن البحيرة في الأسافل.

كان فصل الصيف آنذاك يحتضر. وغيوم الخريف بدأت

تزحف على قمم الألب مستصدرةً شهادتها بوفاة الدفء، والإستعداد لاستقبال طلائع الصقيع. وكان من الطبيعي أن نحجم عن أيّ محاولة لإنقاذ الباقة، لأن الأوان في كل الأحوال قد فات. ولكنّي فوجئت في أحد أيام الآحاد، عندما كنت منشغلاً بمعاندة أناشيدي في الطابق العلوي المشرف على الجانب المواجه للبحيرة، بجلبة في الجهة الأخرى المشرفة على الحقول الشرقية حيث يستلقي البستان. وكان عليّ أن أقطع صَلاتي، وأنتقل إلى غرفة النوم، المطلّة على البستان، كي أستكشف ما يجري. هناك تكأكأت مريم مع الجارات على هيكل الباقة المنكوبة في حملة، قادها الهرّ «نيغيلي» بنفسه، كانت بمثابة آخر محاولة لإحياء العظام وهي رميم: عملية تدخّل جراحي حقيقي فقدت فيه الباقة ثلاثة أرباع هيكلها. نوع من صدمة مستعارة من طبّ مصر القديمة إسمه «تربنة» يعالج المرضى الذين أعجز الدهاة مرضهم فلا يبقى إلّا الإستعانة بترياق الحدود القصوى!

معبودة مريم أيضاً تعرّضت في ذلك اليوم لترياق الحدود القصوى. ولكن كان علينا أن ننتظر حلول الربيع القادم كي نكون شهوداً على مفعول الترياق!

10

بحلول الخريف يبدأ النزيف.

في الخريف تتجلّى طبيعة الألب وهي تلفظ أنفاس النزع الأخير. ولا أدري لماذا رأيت في جودها بأنفاسها إغواءً غيبيّاً لم يخلُ يوماً من فتنة ممهورةٍ بجمالٍ قاسٍ، كأنّها تستحضر بهذا الطقس الوثني الدّامي حكيم الجامعة، كي تلقّنه أنشودته عن يوم الممات الأفضل من يوم الميلاد، لأنه الميعاد الذي يتحالف فيه ثالوث الصقيع والريح والمطر للإطاحة بسلطان الطبيعة الذي يسكن أوراق الأشجار. فالخريف إذا كان شِعْراً في جسد الطبيعة، فهو، في روح الفصول، ورمٌ مجبولٌ برؤيا. رؤيا بقدر ما تبدو وجدانية، بَيد أنها تخفي كابوساً يلعب فيه الغيث دور الجلّاد. أمّا الصقيع فعرّاب كَفَنٍ. في حين يقف الريح بسيفه شبحاً يشاهد الضحيّة من وراء حجاب. فالريح وحده لا يهنأ بالاً ما لم يجهض آخر شجرة خريف، وينتزع من بين يديها تلك الورقة التي حقّ لها أن تباهي بها العالمين،

لأنها شهادتها الوحيدة على هويّتها كأمّ. ولهذا السبب تبدو الأشجار وقد تعرّت، بفعل الريح، من آخر ورقة، تجسيداً لحدادٍ لا أرضيّ. حدادٌ بأفقٍ كينونيّ، لا يلبث أن يتجلّى في سيماء رسل السلطات المخوّلة بتولّي أمر جثث الجند الذين قُدِّرَ لهم أن يسقطوا بهذه الملحمة الموسمية، فيُغرقوا الطرقات ويسدّوا على الناس السّبل، لترصد لهم السلطات ميزانية خرافية، لأن ضيق مساحة الوطن جعل سويسرا بأسرها مجرّد بيت صغير، المواطنون فيه مجرّد عائلة تتنقّل في محيط هذا البيت، بدليل أن كل شبرٍ في هذه البقعة الأسطورية السابحة في الفضاء ركنٌ موسوم بلمسة إبن البيت، وإلّا لما بات هذا الوطن مثالاً محسوداً من كل الأوطان لو لم يكن النموذج في كل الخصال، ومعاملة طبيعة المكان كامتدادٍ حرفيّ لبيت كل مواطن، لا يعود ترفاً في العلاقة مع البيئة بالنسبة للإنسان السويسري، ولكنه يقينٌ أخلاقي أعظم شأناً من مجرّد الوعي بأهمية العناية بالمحيط البيئيّ.

فطبيعة الوطن ليست فضاءً مجرّداً في عقلية هذا الإنسان، ولكنها بيته الشخصي في حجمه الأكبر، كما بيته هو الوطن في حجمه المصغّر. وهو ما يتجلّى في المسلك اليومي، ليغدو مع توالي الأجيال ضرباً من فطرة. ولهذا لا يبخل هذا الإنسان على الخزينة العامّة بنصيبه من مكوسٍ نالها بأنبل عرق جبين،

لأنه سيراها تُنفق يوميّاً في كل زاوية من زوايا بيته الأكبر، ليس فقط في شؤونه الماثلة للعيان كتعبيد الطرق أو شقّ الأنفاق، أو إزاحة الثلوج في فصل الشتاء وما شابه، ولكن أيضاً في العناية بالطبيعة بدايةً بتقليم الأشجار، أو تضميد جراحها، ونهايةً بالتخلّص من الأوراق التي سقطت في معارك الخريف، مروراً بتشذيب نسيج الحشائش لا في الحدائق العامّة وحدها، ولكن مقاومة تلك النّبوت التي طغت في مواسم الدفء فتطفّلت على طرق المواصلات أو دروب السابلة، فاستوجب تحجيمها وإلزامها بناموس وطنٍ الحدود فيه قدس أقداس.

إنه ناموس وطن يسكن رحاب الرؤى السماوية، فلا يتردّد في أن يقيم الحدّ على شجرة تمرّدت على مشيئة سياج في بستان، فأطلّت برأسها لتعيق حركة المارّة على رصيف الجوار، فلن يضمن صاحب الشأن ألّا يتلقّى الإنذار بشأنها فوراً، فإن تلكّأ ولم يسرع بتقليم أظافرها في ظرف أيام، فستسعى الغرامة الموجعة إلى صندوق بريده حتماً!

11

انتهت صلاحيّة إجازة الطبيعة، المحدودة المهلة، المسمّاة في لغتنا صيفاً، والتي تظلّ، بمنطق الطبيعة، حلماً منسوجاً من ضوء، لتعقبها تلك الرؤيا الشعرية المجبولة بوصمة القربان، لنجد أنفسنا رهائن الكفن من جديد. تغترب الطبيعة في دنيا الألب ونغترب باغترابها أيضاً، لأننا جئنا من بيئة كان لنا الضوء فيها مسقط رأس، والدفء أرجوحة مهد، وقماط طفولتنا حلمٌ محبوكٌ من شعاع المعبود. إنه يابسة التكوين، ووطن الرؤى السماوية الضائع الذي لم يكن ليستعير هويّة الفقد، لو لم يستجر بالجدران الملفّقة من عدم. فأين المفرّ من بعبع الكفن في فصل البيات الشتوي؟

لا مفرّ بالطبع إلّا بالإستجارة بممالك الحلم لاستنطاق الذاكرة، لتكون المكتبة في هذه الرحلة الدليل الوحيد، حيث سيهرع سدنة الحكمة لملاقاتنا، بل واستضافتنا بأنفس ما في جعبة محفلهم، لأن وصاياهم إذا كانت عصارة ثروتهم،

فإن ما لا يبخلون به علينا في هذه الوقفة هو هذه الذخيرة بالذّات.

ولكن المسألة أن العلاقة مع المكتبة سيرة لها تاريخ. تاريخٌ يعود إلى عام 1962 عندما وقعت بين يديّ ترجمة عربية لرواية غراهام غرين «قلب الموضوع» (The heart of the matter) ليكون نواةً لمكتبتي الأولى التي أسّستها بحرص طوال سنوات مقامي في ربوع حاضرة الواحات جنوب ليبيا الموسومة باسم «سبها». ولكن التوق الغيبيّ إلى شدّ الرحال، أو بالأصحّ، مواصلة الترحال نحو الشمال، ما لبث أن أطاح بمشروع المكتبة. حدث ذلك عام 1969 عندما حللت بالحاضرة في الساحل لأبدأ اقتناء الكتب من جديد في محاولة لترميم كيان فردوسي المفقود الذي خلّفته ورائي على أمل أن أستعيده يوماً عندما أعود، ولكن هيهات! لأنه كان عليّ أن أعبر قارات كثيرة، وأنزف دماً سخيّاً، كي أعلم أخيراً أننا، عندما ننطلق، لا نعود إلى الوراء أبداً. لا نعود أبداً حتى لو عدنا، حتى لو توهّمنا أننا بعودتنا الحرفية نستطيع أن ندّعي أننا عدنا فعليّاً، لأننا نكتشف أننا بخروجنا، لم نخرج في الواقع من أمكنة لها حضور في الواقع، ولكننا نغترب. نغترب لا بوجودنا في أمكنة أخرى أبعد مسافة، ولكننا نغترب لأننا نتحرر من بعد الوجود، لنسكن، بالهجرة، **البعد المفقود!**

ولهذا السبب لم أفقد مكتبتي الأولى وحسب، ولكنني أضعت أيضاً مكتبتي الثانية التي وضعت لها حجر أساس مجيد (نظراً لوجودي في رحاب حاضرة لها حضور في العالم، بالمقارنة مع واحتي الصّحراوية المنسيّة، المقطوعة الصلة بالعالم، مما يجعل الحصول على الكتاب الصادر في القاهرة أو بيروت لقية حقيقية)، لأن هاجس الفرار لم يمكنّي من المكوث في رحاب الحاضرة سوى ثمانية أشهر فقط، لأشدّ الرحال هذه المرّة إلى ما وراء البحار، بل إلى ما وراء القارات، حيث ينتصب، في أقصى شمال شرق العالم، الستار الأسطوري، الملقّب بـ: الحديدي!

والمدهش حقّاً هو أن يصعب الحصول على الكتاب الحقيقي (الكلاسيكي تحديداً) في أمبراطورية تحرص دور نشرها على إصدار هذا الجنس من الكتب بأرقامٍ فلكيّة، في النسخ، كل عام دون أن يجد المريد وجوداً لها في أسواق الكتاب، فلا يبقى لهذا المريد إلّا اللجوء إلى المكتبات العامة التي إذا سمحت بمطالعة الكتاب في قاعاتها، فهيهات أن تسمح بإعارة الكتاب. وكان على شخصي أن ينتظر أمداً كي يجد تفسيراً لهذا الطلسم في عالمٍ يعتنق الكتاب ديناً، ويتلو صلواته بين دفّتي كتاب مطلع كل يوم وهو يستقلّ قطار الأنفاق في طريقه إلى عمله، ليختم نهاره أيضاً بتلاوة صلواته في

صفحات الكتاب أثناء عودته من عمله في المساء. لقد اكتشفت تالياً أن سرّ غياب الكتاب الكلاسيكي هو نظام الحجز المسبق للنسخ المعمول به في الإمبراطورية. وهو عملٌ يخضع لروتين إداري يستلزم استحضار وثائق وإنجاز معاملات لا قبل لنا بها نحن الأضياف. هذا علاوة على وجود رهان آخر هو الوقت. فانتظار صدور الكتاب بعد استكمال هذه الإجراءات قد يستغرق أعواماً سيّما بالنسبة للأعمال الكاملة التي تصدر على مراحل في أجزاء. وهو شرط لا نستطيع أن نفي به ليقيننا بأننا في هذا الواقع لسنا أضيافاً وحسب، ولكننا بالحقّ مجرّد أطياف. وهي هوية سحرية قد تضمن الإحساس بالحرية، ولكنها بالمقابل تنفي فينا الإحساس بالإنتماء إلى واقع حسّي محكومٌ بناموس **الملكيّة**. والمعرفة إذا كانت قيمة روحية، أي **غنيمة حرية**، بيد أن وجودها حبيسةً بين دفّتي كتاب، يحيلها شَرَكاً يدين بالولاء لدين الملكيّة. في هذا البرزخ ينشب الجدل: فنحن بالمعرفة نهفو لأن نتحرّر، ولكن كي نتحرّر بالمعرفة لابدّ أن نحتمل وزر استجلاب هذه المعرفة من ذخيرة مختزنة وراء قضبان كتاب. فإذا تعدّدت الخزائن الحاوية لغنيمتنا فهذا سيعني وجوب أن نتنازل لا عن وقتنا وحسب بقصد اقتناصها، ولكن يجب أن نضحّي بنصيب من حريّتنا أيضاً كي تستسلم لنا، وهو ما يعني أن نستسلم لها

أيضاً بأن نرابط في بلاطها، ما دمنا لا نستطيع أن نحملها عبئاً على ظهورنا، ونفرّ بها عبر العالم.

عسر الحصول على الكتاب الحكيم أدّى إلى نشوء سوق حرّة تباع فيها مثل هذه الكتب بعشرات أضعاف ثمنها في السوق الرسمي. فلقية مثل مختارات كافكا الصادرة بعد الإنفتاح الخروتشوفي عام 1965 تُباع في هذه السوق بمائة ضعف ثمنها الأصلي. وكذا الأمر بالنسبة لـ«لعبة الخرز» لهرمان هيسّه على سبيل المثال. فأيّ مريد في حرم العلم يسمح لنفسه بدفع مبلغ كهذا في أزمنة شحّ فيها الدخل، والمنحة الشهرية المدفوعة من قبل إتّحاد الكتّاب السوفييت لا تتجاوز التسعين روبلاً؟

وجود الكتاب النفيس واستحالة الحصول عليه بسهولة ربَّى فينا نزعة حميدة وهي معاملة الكتب القيّمة ككنوز لا تقدّر بثمن، ممّا حفّزنا لطلبها بأيّ ثمن. فكّنا نستقطع الروبل الواحد، بل والكوبيكات، من قُوتنا اليومي لنتمكّن من اقتناء مثل هذه الكتب. وتشاء الحظوظ أن تكافئنا على وفائنا لجناب الكتاب فتدلّنا على متجر فتح أبوابه قبل مغادرتي الأولى لموسكو بعام، أي في 1976، خاص بالأجانب، يسوّق الكتب بالسعر الرسمي، ولكن بما يعادل الروبل بالعملات الصعبة. وكانت النصوص الأدبية المنشورة

بالصحف الوطنية والعربية قد بدأت تذرّ دخلاً متواضعاً، ولكنه كان كافياً لاقتناء تلك المحافظ المسكونة بالحقيقة، التي تستدرجنا بغيوبٍ، لتخاطبنا بإغواء من وراء حجاب، فلم أملك في كل مرة إلّا أن أبتهل للعناية الإلهيّة أن تمهلني حتى أتمكّن يوماً من أن أسترضيها بذلك القربان الجسيم، وهو: **الوقت**، ما دمنا لا نملك أن نلتهم متونها في وجبة واحدة، ولكن بموجب تلك الأقساط التي لا تكتفي بأن تستنزف فينا وقتاً هو لنا ذخيرة وجود، ولكنها تجبرنا أن نتحلّى بالإنضباط في بُعْده الأقصى، بارتداء مسوح الإحرام، قبل أن نذهب لنطرق بوابات العزلة.

المكتبة، من هذا القبيل، ليست مكتبة، ولكنها محميّة، المريد فيها صائد يترصّد هنا وهناك بعناية، والفحوى فيها طرائد تمّ اختيارها كي تكون ملاذاً مناسباً لمن ينتظر بفارغ الصبر، لا تقاعداً يعفيه من منصبٍ أو وظيفة، ولكن خلاصاً يعصمه من دوّامة.

ولكن ما لم يخطر على بال مريد المكتبة، وهو ينهمك في اقتناء فحوى هذا الفردوس، هو الهوية. هويّته هو كعابر للمسافات. وهي الهوية التي لم يكتسبها في عبور القارات، ولكنه ورثها عن أسلافه في الجينات. وهو ما يعني أنه إذا كان قد استطاع أن يتنكّب بيته ليحمله عبر المسافات في صحرائه،

بيد أن عليه ألّا ينسى ماهية هذه الهوية إذا تعلّق الأمر بمكتبة؛ لأن هذا الكيان وُجد ليكون لمُريده وتداً، شَرَكاً، مأوَىً يسكن إليه، لا أن يقتلعه من جذوره ليفرّ به نحو الأفق المجبول بالبعد المفقود، ناسياً، في حمّى اللهفة للإرتواء من ينابيع الفحوى المخفية في بطن الدفّتين الشهيّتين، أن أسلافه الأوائل كانوا قد اكتشفوا بألوف الأعوام الحيلة الوحيدة في مداواة هذه المفارقة عندما قاموا بتحطيم الألواح الحجرية التي نقشوا في صلدها وصايا كتابهم الضائع «آنهي»، ليدسّوا فحواه في قلوبهم، لتكون له الذاكرة الحصن الحصين منذ ذلك اليوم، لتتوارثه الأجيال خلفاً عن سلف، فأنقذوه من حيث ظنّوا أنهم أضاعوه، كما يروقهم أن يردّدوا في أدبيّاتهم إلى اليوم. فكيف أحقّق حلماً هدهدته دوماً بأن أتجرّع سيول فحوى المكتبة كاملة، بدفعةٍ واحدةٍ، كي لا أضطرّ للبحث لها عن بيتٍ يشدّني معها إلى الأرض، ثمّ أحرّر نفسي من كل واجباتي الدنيوية كإنسان من لحم ودم لأتفرّغ لإنجاز هذه العملية الجراحية الميثولوجيّة في غمضة، لأن **الوقت** هو المارد الذي لم أضمنه كحليف يوماً!

لقد رهنّا أنفسنا للنسيان منذ فقدنا الذاكرة الطبيعية واستبدلناها بالذاكرة الإصطناعية. الطبيعة كانت وفيّةً لنا عندما كنّا أبناءً لها يتلهّون في ساحتها، قبل أن نتنكّر لها لنغدو سلالة

ضلال. في العهد الذي كنّا فيه على وفاق مع هذه الأمّ كنّا نستعين بذاكرة منيعة، محروسة بألف جانّ، أخفتها الطبيعة بدهائها في حصونٍ مصيرها رهين مصير حاملها من فرط امتناعها، وزوالها رهينٌ بزوال الوصيّ الذي نصّبته الأمّ وليّاً على أمرها. وامتناعها على هذا النحو الخرافيّ جلّلها بعبقرية فطرية تختزن بموجبها ملحمة شعرية كاملة من مئات الأبيات، نالتها دسيسة من حاسة السمع للمرة الأولى، فلا تكتفي بأن تتغنّى بها في المحافل وحسب، ولكنها تحتفظ بها في خزنتها كنزاً معصوماً من النسيان إلى الأبد.

ولكن ذاكرة الفطرة فقدت صلاحيّتها يوم أضاعت بكارتها لنعتمد على الذاكرة التي اختلقناها اختلاقاً من واقع يقع خارجنا، دون أن نتخيّل أننا بهذا العمل لم نستبدل فقط ذاكرة طبيعية بأخرى اصطناعية، ولكننا قتلنا الذاكرة التي تكمن سطوتها فينا، لأنها تسكننا، بالمقارنة مع الذاكرة المختلقة التي نلناها على سبيل الإستعارة لنغدو ضحيّة بها، لا سلطاناً عليها، لأنها تخذلنا، فلا نعوّل عليها لالتقام وجبة شعرية من ثلاثة أبيات، فكيف بالتقام ملحمة شعرية من مئات الأبيات، أو التهام مكتبة في أيام؟

هذا المأزق الذي نالنا في مسيرة اغترابنا عن واقع الطبيعة هو ما دفعنا للإستعانة بالوقت لإرواء الروح الظامئة إلى

الحكمة. ولكن المأساة أننا لا نملك هذا الوقت، ولكن الوقت هو الذي يملكنا. فلا نملك إلّا أن نستجديه كي يمهلنا وهلةً تمكّننا من أن نخلو لأنفسنا، لأن الحكمة بطبيعتها حسناء لا تهب نفسها لمن أعجزه أن يحقّق معجزة الخلوة مع الربّ!

12

ما فاتني في وضع حجر الأساس لجلالة المكتبة ليس فقط البحث عن ملاذ يصلح صومعة لمقام الخلوة، ولكن علاقة سلطات الأوطان الملتبسة ببعبعٍ كالمكتبة. ففي الوقت الذي تمنع فيه سلطات بعض الأوطان خروج الكتاب من أراضيها، بوصفه ثروة وطنية، كما هو الحال مع الإمبراطورية السوفييتية، تقوم سلطات أوطان أخرى كأوطاننا بتحريم دخول الكتاب بوصفه وباءً مميتاً! وهو ما يعني الدخول في معركة روتين إداري في كلا الحالين. وإذا كنت قد استطعت تذليل العقبات، والحصول على الموافقات المستوجبة من وزارة الثقافة بالبلد المستضيف، بيد أن الحصول على موافقة دخول هذا الحمل الثقيل من سلعة هي أسوأ من شحنة الإفيون في منطق سلطات أوطاننا الشقية، استدعى تنظيم حملة حربية حقيقية، لم أجد مفرّاً لتنفيذها من الإستعانة بشقيقي وصديقي فنايت الكوني بحكم رتبته كرائد طيّار

بالجيش آنذاك، كي يسخّر ما يزيد على العشرين ضابطاً من زملائه ليقتحموا المطار بتلك المفرزة المهيبة، ليتمكّنوا من إنتزاع الشحنة المحظورة من براثن الجمارك قبل أن تقع في أيدي رجال الأمن.

ولكن هل استقرّ بي المقام أمداً يتيح لي فرصة الإختلاء بمعشوقتي القديمة؟

كلّا بالطبع!

لأن نداء الرحيل لم يمهلني سوى بضعة أشهر، لأنطلق من جديد، لتحطّ بي الرحال هذه المرّة على شطآن بحر البلطيق أقصى الشمال. تركت معشوقتي رهينة جدران أحد الأصدقاء، لأبدأ رحلة اقتناء مكتبة جديدة في ربوع مقامي الجديد. وأعترف أن في هذا المقام الكئيب استطعت في نهاية المطاف أن أستعيد العلاقة مع المكتبة بعد انقطاع دام أعواماً، أي منذ هجرت تخوم مسقط الرأس في جنوب هذا العالم، لأرحل بعيداً بحثاً عن حلمي الضائع. استعدت العلاقة لسببٍ بسيط بقَدر ما هو جسيم. استعدت العلاقة لأن ميعاد التخلّص من الأوهام قد حلّ، ومخاض الميلاد الثاني طرق الأبواب. إنها خيبة الظنّ بعالمٍ مسكون بباطل الأباطيل، الذي لا نكتشف كم خذلنا إلّا بعد أن تكون أنصاله قد تمكّنت منّا، فنركن إلى

الخلوة لنعاند نزيف الروح، فلا نجد في الجوار إلّا الكتاب ليعزّينا.

كانت وارسو آنذاك حاضرة الحلف. وهو ما يبرّر الإهتمام الإستثنائي بها لا على المستوى السياسي أو العسكري أو الأيديولوجي وحسب، ولكن في المجالات الأخرى كالثقافة مثلاً. ومن الطبيعي أن تكون لها حصّة الأسد في الكنوز التي تلفظها مطابع الإمبراطورية بالمقارنة مع قريناتها في المنظومة الإشتراكية، فيصير الكتاب المفقود في موسكو في المتناول في وارسو، مما مكّنني من تعويض ما أضعته في تنقّلاتي من كتب القيمة. فهل ساد السلام، وطاب المقام في حضرة مكتبة كان السكون إليها في حياتي حلماً، بل وفردوساً؟

كلّا بالطبع. فالفردوس هو ما لا نطمئن إليه، وقدرنا أن نهجره لأن مقامنا فيه يجعله يكفّ عن أن يكون فردوساً، لأن الوطن الذي يليق بالفردوس هو الحلم بوجود فردوس، وحضوره ينفي هويّته كفردوس. ولهذا السبب يقرع الوجدان الأجراس ليستفزّ فينا النداء القديم. نتوهّم أننا بفرارنا من وجه الدنيا نتحرّر من شبح الدنيا، ولكن هذه الجنيّة تتشبّث بتلابيبنا، ولا تدعنا وشأننا ما لم تستودعنا الأرض بطنها. وها هي تنتزعني من أحضان معشوقتي لترمي بي في رحلة الشمال من جديد، متنكّباً أوزار كنوزي. عدت إلى موسكو في زمن

بدأت فيه أعمدة برج بابل تتزعزع، لأشهد انهيار معمار البرج الذي عوّلت عليه الأجيال الشقيّة في ردّ الإعتبار للعدالة الضائعة، فخيّب ظنّها، ليبرهن بذلك على غياب أيّ عدالة من خارطة الوجود ما لم يتنازل المعبود فيتنزّل عن عرشه ليتولّى الأمر بنفسه!

13

الألب، في منتصف الشتاء، منفى كبير. كل الكائنات آوت إلى جحورها منذ أشهر، فلا يبقى في الأنحاء المطمورة تحت الثلوج سوى الغربان المولعة بكل بيئة مكسوّة بالبياض، كما لاحظت سنوات وجودي في روسيا وبولندا، كأنّ هذه الطيور المنكرة، المرادفة للشؤم في كل الثقافات، تهفو لواقعٍ تهيمن فيه الثلوج طمعاً في أن يخلّصها بياضها المؤلم من لعنة السواد! والدليل غياب الغربان من واقع شبه الجزيرة الإيبيرية البيئيّ حيث يتسامح المناخ وتغيب الثلوج سيّما في الجنوب.

وعلّ الأسوأ من تعلّق الغربان بالثلوج هو سوء خلقها في العلاقة مع أنبل أجناس الطيور وهي الصقور، فكنت أشاهدها وقد انتابتها نوبة مسّ ما أن تتبدّى الصقور في الأفق، فتتنادى في جوقة نعيق كريه، قبل أن تعترض سبيل الأضياف المكابرة في هجمات جماعية في نيّة لردّها على أعقابها. ولكن المدهش في مثل هذه الحملات الجنونية هو مسلك الصقور

التي لا تُقبل عادةً في أسراب، لأن نبلها أو ثقتها بنفسها، ينكر عليها الإحتماء ببعضها البعض أثناء استطلاعاتها للأرض على ارتفاعٍ شاهق، فتدوّم في الفضاء بأجنحتها الفارهة التي لا يعجزها أن تنقضّ على غزالة في الصحراء، أو بهمة أيائل في الجبال، فتحملها بمخالهبا الخارقة. ولكنها لا تُجارَى في عفافها أيضاً، لأنها لا تتنازل فتنقضّ في واقع الألب على دجاج الفلاحين، أو بغاث الطير كالعصافير أو السنونو أو ما شابه. بل لاحظتُ أنها تترفّع عن اختطاف الأرانب أيضاً في الألب، وتكتفي بطرائد أخرى كالسناجب، أو الخلد أو فئران الحقول. وعفافها هو ما يجعلها لا تتنازل لتدخل في عراك مع الغربان الذين يهاجمونها عادةً بشراسة فتناور في الفضاء بأجنحتها لتتحاشى غزواتهم بحكمة من يريد أن يلقّن الخلق درساً مفاده أن قبول الأصالة، بالدخول في نزاع مع السفالة، حطٌّ من قدْر الأصالة، لأن معاملة السفيه كَنِدّ، وحده شرفٌ كافٍ كي يعتنقه السَّفَلَة كغلبة!

باستثناء الغربان في ظلمات الألب الشتوي يعزّي عزلتنا في جحورنا وجود أضياف مريم في الشرفة بالأسفل. إنهم معشر العصافير الذين سمحت لهم ربّة البيت بتشييد أعشاشهم في فجوات الأعمدة بالشرفة، وسردتُ سيرتهم بإسهاب في بيانٍ آخر في غير هذا المكان.

باستثناء هذه المخلوقات يهيمن الكفن والظلمة و. . السكون، سكونٌ يوحي بوجودنا خارج هذا العالم، ولا يدنّس حرمه سوى ساعة الكنيسة التي لم أكره شيئاً في مملكة الألب كما كرهت أجراسها الموجعة. فأجراس أهل العزلة نداء الباطن، أجراس الوجدان، ونواقيس الساعة أو أجراس الكنائس، خدشٌ لحياء النداء. ولكن هيهات أن يدرك عبدة الحرف طبيعة إنسانٍ يدبّ بينهم على قدمين، ولكنه يبقى غريباً بينهم، لأنه يتقمّص الجسد مثلهم، ولكنه يحيا في حصنٍ منيعٍ لا قبل لهم به، يبدو هشّاً برغم امتناعه، كما هو الحال مع لغزٍ إسمه: **الروح**.

هذه الردّة المقدّسة إلى الباطن، سبيل أمثالنا الوحيد لارتياد الغيوب، للإطلالة على معبودٍ يسكن كلّاً منّا، لأنه هاجسنا كلّنا، قد يسمّيه بعضنا البُعد المفقود، وقد يكتفي جلّنا بنعته باسمٍ غامض هو: **الغيوب!**

والمكتبة، في حلفها مع السكون، دوماً دليلٌ في طرق أبواب هذا المعبود. المكتبة التي أسكن إليها الآن في مثل هذه الرحلة ليست هي المكتبة التي نقلتها معي من وارسو إلى موسكو في أحد أكثر شتاءات الشمال قسوةً في يناير 1987، فاستثمرت الإنهيار الذي ضاعفت نزعة الدراما فيه هويّته كانهيار **امبراطوري**، فأجبر عشّاق هذا المتن المقدّس الذي

نسمّيه كتاباً (لأن حبّ الحكمة هو ما يجعل الناس يرون في كل كتاب فحوى قدسية) لبيعها في الأسواق بأبخس الأثمان كي لا يموتوا في زمن البلاء، من الجوع وهم الذين جمعوا هذه الأناجيل على مدى أعوام، وترصّدوها كأنفس طرائد كي يتمكّنوا من اقتنائها، تماماً كما ترصّدتُها في مكتبات الحاضرة يوماً، عندما كان الكتاب في السوق السوداء يباع بوزنه ذهباً. وهي بالطبع خيبة. بل هزيمة مريرة بالنسبة لأناسٍ عوّلوا على دوام البحبوحة، ونسوا أن البحبوحة فاكهة وجود الوئام، وليدة هيمنة السلم، ولكن استحالة وجود زمن آمن كما تملي طبيعة الأشياء، ما لبث أن أطاح بحلم اليقظة، ليستيقظ الناس في أحد الأيام على الهول. وكم أحزنني أن تضطرّ الظروف أناساً يعبدون الكتب كالروس فيجرّدوا بيوتهم من أنفس كنوزها، ويدفعوا بها إلى الأسواق كي يؤمّنوا قُوت أبنائهم! لقد مكّنتني تلك المحنة من اقتناء المكتبة التي حلمت بها دوماً، مؤلّفةً ممّا يربو على الخمسة آلاف كتاب هي روح الحكمة البشرية منذ الأزل. ولكن النداء الذي استيقظ يوماً حرمني من أن أستمتع بالحضور في نعيمها أمداً طويلاً، فيمّمتُ صوب الألب، بعد أن خضتُ حرباً مع الروتين كي أستكمل إجراءات تسفيرها إلى الوطن، لأن ظروفي الصحيّة والدنيوية لم تمكّنّي من اصطحابها معي، فكان اليوم الذي ودّعتها فيه هو أتعس أيام

حياتي؛ لأنّي لم أتخيّل كم سأكون خاوياً ومهجوراً ويتيماً بغياب هذه الأمّ. كنت قد انخرطت منذ وصولي في تعلّم الألمانية علّها تشفي في المستقبل غليلي. وأتاحت لي المكتبات السويسرية فرصة الحصول على بعض المؤلفات بالإنجليزية، ولكن الظمأ إلى الكتاب باللغة التي كانت دليلي إلى مخابيء القيمة، تمادى، فلم أجد مفرّاً من شنّ غزوات دورية منتظمة على حطام الإمبراطورية والدول المنبثقة عنها، لاقتناء المعبود الذي كان لي، في محنة وجودي، عزاءً؟

14

الأنسب أن نسمّيه «الموت الشتوي»، بدل «البيات الشتوي»، في وطن الألب، لأن حلفاً مبرماً بين نهارٍ تغيب في سمائه الشمس ثمانية عشر ساعة، ويقبل الضباب ليجهز على الساعات الستّ الباقية، مع هيمنة غيوم غربيبة لا تتنحّى لأسابيع، بل لأشهر أحياناً، إنما هو حضور في دهليز، وليس تحليقاً في سماء تعلو سطح البحر بالألف متر. إنه الدرس الذي يعلّمنا ما معنى أن تغترب حولنا الطبيعة، فتشيح عنّا الشمس بوجهها خجلاً من أفعالنا، لندرك كم كان أسلافنا على حقّ عندما نصّبوها معبوداً خلعوا عليه لقباً جليلاً هو «رغ» (بالغين)، وليس «رع» كما يترجمه المستشرقون خطأً عن لغة الفراعنة، فلا نجد مفرّاً ندفن فيه الكآبة المميتة، الناتجة عن سخط المعبود، سوى البحث عن الخلاص في عمق بلا قاع، ومحفل كالمكتبة له دوماً كلمة سرّ. ندير ظهورنا للعوالم التي نتنكّر لها عادةً ونبخل بانتمائنا لها، فلا نعترف بأنها تسكننا،

ولكنّها برغم إنكارنا تتسامح معنا، فتقبلنا، عندما نمثل في حرمها لنستغفرها. وها هي ترتاد بنا آفاقاً لا تنسينا فقط واقعنا، ولكنها تأبى إلّا أن تقودنا إلى البعد المفقود حيث ترابط الحقيقة التي تسكن بعيداً، بعيداً، في بطون الصحف الأولى، متكتّمةً على روح أجيالٍ عايشت عهداً كانت فيه الحجارة رطبة، والسلف يتنقّل في يابسةٍ بكرٍ انحسر عنها الغمر للتوّ، برفقة الآلهة. ولكن هل يمهلنا شبح «الموات» في معراج الحلم؟

كلّا بالطبع. ها هو الكابوس يتسلّل في تضاعيف الظلمة ليدسّ لنا في صندوق البريد نبأ ينعى لنا غياب جارتنا «إيرينا». كان الوقت عصراً، ولكن العصر المقنّع بظلمات شتاء الشمال الذي لا يعترف في الألب بوجود نهار. والثلج يهوي في الخارج بكثافة مدعوماً برياح غربية شمالية تنفث صقيعاً يتضاعف مفعوله بأنفاس المحيط المتجمّد الشمالي. ولكن واجب العزاء لا يعترف بالصقيع، ولا بالظلمات، ولا بصفعات الجليد. فالراحلة «إيرينا»، التي فجعنا فيها فجأة، سيّدة ألمانية، إلتحقت بركبنا في «غولديفيل» منذ ثلاث سنوات برفقة قرينها الذي كان يعمل خبيراً بشركة «نستلي» العالمية، وسبق وشغل منصب مندوب لها في بريطانيا وفرنسا. وقد حرصا، ما أن حلّا في ديارنا، على إقامة حفل

تعارف دعيا له كل الجيران، كما حتّمت مشيئة التقليد، فلم أجد ما أهديه لهما كبطاقة تعارف سوى آخر إصدار لكتبي بالألمانية عملاً بوصية الحكيم «تكلّم لكي أراك» والأهم من كل شيء أنهما كانا معاً نموذجاً في النقاء الأخلاقي، والمثال الذي ينفي كل خصال إبن جدلتهما هِرّ «أوتمان»، ليبرهنا كم نظلم أمّةً عندما نستصدر في حقّها حكماً بوحيٍ من سيرة إبنٍ لها ضالّ!

وكم أحزننا أن نعلم أخيراً ابتلاء فراو «إيرينا» بوَرَمٍ شرس لم يمهلها إلّا بضعة أشهر، رغم أنها لم تفقد حيويّتها ومرحها وجمال روحها طوال صراعها مع الدّاء. جمال الروح شهادة المعدن، كما الطفولة في مسلك العقلاء برهان نقاء. ولهذا صارت لمريم صديقةً منذ الأيام الأولى لوصولها. وعندما أقعدها الدّاء عن ممارسة واجباتها المنزلية، بل وتلبية حاجاتها الطبيعية أثناء غياب قرينها في العمل، كانت مريم تعدّ لها طعوماً ذات خصائص محدّدة، وتذهب لتطعمها، دون أن يخطر لنا على بال أن وضعها الصحّي كان ميئوساً منه. ولهذا السبب كان النبأ صدمة قاسية سيّما لمريم التي هرعت إلى جارتها فراو «ناغيلي» لتستفهم منها عن الأمر. الجارة قالت أن «إيرينا» لفظت أنفاس النزع الأخير في المستشفى، وإنّ إبناً لهما وصل من ألمانيا، وهو من يرابط

بالبيت لتلقّي العزاء بالإنابة عن الأب الموجود بالمستشفى رهين الجثمان. وكم كان موقفاً أليماً ومحرجاً أيضاً أن نطرق باب إنسانٍ نراه ويرانا لأوّل مرة، كي نعبّر له عن العزاء في أحبّ إنسانٍ، في حياة كل إنسان، فتحاصرنا غيوث الصقيع كأنّ الطبيعة تأبى إلّا أن تدلي بشهادتها في رثاء الفقيدة، لأن كل الأخيار في عرفها أبناءٌ.

15

في مارس يحلّ ميعاد الخروج الذي انتظرناه طويلاً. إنتظارٌ لا يُقاس أمده بما سفحناه من زمن، ولكن بما نزفناه من ألم. ولذا فهو انتظارٌ طويلٌ جدّاً، لأن المعاناة فيه كانت أليمةً جدّاً. وبعث الروح في جسد الوجود، رهين ميلاد الشمس من رحم العدم، لنعلم في كل مرة كم وجودنا رهين بوجودها، وكم سعادتنا رهينة نزيف شعاعها، المستعار من ذخيرة روحها، فنتحرّر بفضل تضحيتها. نخرج من شرانق نفوسنا، كما تخرج كائنات المكان من مخابيء بياتها، لنبرهن لأنفسنا بأننا مازلنا أحياء، كأننا عشنا كابوساً لفظنا فيه أنفاس النزع الأخير على أيدي ملّة أشرار، وعندما أفقنا من سباتنا لم نصدّق أننا مازلنا قيد الحياة، وإحساسنا بقيمة الحياة كمعجزة غير قابلة للتكرار هو ما يدهشنا فنتساءل كيف نطيق البقاء تحت سقوف الجدران، فننطلق. نهيم على وجوهنا كما يهيم سجناء قضوا في الغياهب أمداً طويلاً، فيسرحوا في الأرض

ما أن يُطلق سراحهم، طمعاً في استعادة الشطر الضائع من مهلة قصيرة هي: **العمر**. العمر الذي يُقاس بما عشناه طلقاء، ويُخصَم منه كل ما قضيناه ونحن سجناء، وإلّا لما قيل أن السجناء قومٌ لا يموتون إلّا أطفالاً.

نهيم نحن أيضاً احتفاءً بميلادنا الثاني. احتفاءً بعمرنا الثاني. احتفاءً بالقيمة الوحيدة التي نعيش بفضلها، وإلّا لما احتملنا مزاج سعلاة إسمها الدنيا يوماً واحداً: **الحرية!** الحرية التي لم نتخيّل مرّةً أن بوسع ظاهرة طبيعية، كفصل الشتاء، أن تختطفها منّا، فتحرمنا منها زمناً قد يطول إلى أشهر كاملة من كل عام، لتختصرها من أعمارنا غصباً.

يهيمن الدفء فتتصدّع كيانات الجليد، ليبدأ الذوبان المجيد. تتحوّل الطرقات المعبّدة أنهاراً يتدفّق منها مخزون المياه الشتوية العصيّة، فتتحوّل المعزوفة في آذاننا لحوناً شجنيّة تبشّر بالخلاص. في مثل هذه الأوقات من كل عام لا نكتفي بالخروج من مكامننا. ولكننا نخرج من غياهب نفوسنا أيضاً، فنقابل أهل الجوار، وكل أهل القرية، لا لنحيّيهم فقط: كما جرت العادة، ولكن نلتقيهم كأننا نكتشف وجودهم لأوّل مرّة. نلتقيهم بروحٍ تتوثّب لأن تحتضنهم، لأننا اغتربنا عنهم، واغتربوا عنّا، بعد فراق طويل. نهرع، مع مريم، لجولة في الحقول التي حجبها عنّا الكفن البغيض، فنتغنّى في

محرابها الحميم بأنشودة بعثها، وهي تتحرّر من المنفى، لتستعيد هويّتها الضائعة في سجاجيد العشب المشبع لشهوة العين في لونه، والترياق الشافي لغليل الروح في إيمائه. نقف على الجدول الشقيّ المنطلق من قمّة الجبل كما اعتدنا دائماً لنستمع إلى أنغام لهوه، فنجده وقد ضاق بالفحوى في موسم ذوبان الجليد، فيضاعف نبرة الأشجان في أغانيه. ففي ذروة الأصياف التي يقلّ فيها منسوب المياه، بسبب ندرة الأمطار نسبيّاً، يخفت صوت المياه في قيعانه، فلا يجد الدهاة إلّا أن يهرعوا لنجدته بتكديس جلاميد الحجارة في فوّهة مصبّه، في حيلة لإجباره على استخدام اللسان! وهو ما يضمن استمرار رطاناته الطفولية الشهيّة حتّى في زمن شحّ الغيوث التي يستعير منها نفوذه عادةً.

تستغرق الجولة الطويلة، كما نسمّيها، قرابة الثلاث ساعات في رحاب المناطق المجاورة، لأنها تستقطع في تجوال الصعود والنزول، نصف دائرة شمالاً، تعبر بنا مراعي الأبقار، وأدغال الحيوانات البريّة، كالأيائل والثعالب والأرانب والقنادس، وكل أجناس الطير أيضاً، يلتقينا فيها الفلّاحون البسطاء الذين صاروا لنا مع الأيام أصدقاء، لا يكتفون بتحيّتنا، ولكنهم يستوقفوننا ليستفهموا منّا عن أحوالنا، وليحدّثونا عن أحوالهم وأحوال أهم ما في الإنسان السويسري

إجمالاً، وأهل الألب تحديداً: الطقس! أمّا في طريق العودة فكثيراً ما تعترضنا مواقع تعرض منتوجات الخضار، أو العسل، أو الفواكه، أو البيض مطروحةً في العراء على قارعة الطريق، تسويقها رهين أنفس عملة في معاملات الإنسان السويسري وهي: الثقة! فسعر كل سلعة مكتوبٌ على ورقة كرتون بالجوار، وبوسع كل عابر سبيل أن يقتني البضاعة المطلوبة ويلقي بالمقابل في علبة بالجوار، والرقيب الوحيد في هذه الصفقة البريئة هو: الضمير!

16

بسلطان الربيع تتفتّح بيئة المحيط الطبيعي الذي يحوينا، فتستجيب لها الطبيعة البشرية بالبسمة المستحقّة، ليطيب لنا أن نكون شهود عيان للآحاد وهي تسترجع طينتها المفقودة كأعياد متواضعة في مسيرة صلاة طويلة كالعمل، لتكون هذه الآحاد بمثابة محطّات لذلك الإسترخاء الضروري لتجديد الطاقة، وشحذ الهمم لمواصلة جهدٍ ندري كم كان سيكون مملّاً وشاقّاً فيما لو خلا من لمسة الغيوب التي تحوّل كل خشعة فيه ركعة في صلاة، وكل عقبة فيه عائقاً يمحوه اليقين بأنه تسديدٌ لدَينٍ إسمه الواجب.

في هذه الأثناء تلفظ الجدران أحشاءها فيتكأكأ الجيران في البساتين ليعاندو مزروعاتهم وينتشلوا حطامها من تحت الأنقاض. أتحرّر من دفاتري في الطابق العلوي، وأزحف خارجاً أيضاً. أترك مريم في عهدة فراو «ناغيلي» وهي تنهمك معها في محو آثار الثلوج. فيبادلن الجارات الأخريات بحدائق السفح في الجوار، تلك الروايات التي تبرع النساء عادةً في

سردها، من دون خلق الله، فتعمد المرأة لاختلاقها ما أن تحلّ في حضرة إمرأة أخرى حتى لو كانت تلتقي الأخيرة لأوّل مرة، فيستقيم بينهنّ الخطاب حتى فيما عدمت عضلة اللسان اللغة، كأنّهنّ بهذا الكفاح، يقدّمن الدليل على ماهيّة اللغة كرديفٍ للوجود، في حين نظلمهنّ عندما نعزو هذه الموهبة في استخدام اللسان إلى التوق للغوٍ هنّ بمنطقنا في غنىً عنه وننسى أننا نستشعر حضورنا قيد الوجود بقدر ما ننفق من رصيدٍ في استخدام اللسان، سواء عندما يجري سلسبيلاً صائتاً في العضلة، أو في حال استدرجناه ليجري نزيفاً صامتاً في قلم!

أسلك في نزهتي الطريق الصاعد غرباً، فيطلّ على البحيرة من هذه الجهة، فتنهض السلسلة الجبلية طوقاً يتوالد ليسدّ أبعد أفق. وهو السبيل الذي يقود إلى غابات سخيّة موصولة، حافلة بأنواع الحيوانات البريّة، ولكننا لا نتوغّل في مجاهلها طويلاً، ولذا أطلقنا عليها إسم «النزهة القصيرة».

في طريقي أترصّد، من وراء الأسوار الخشبية، جيراني من الجهتين، لأخمّن، على طريقتهم، مدى استعدادهم للإستجابة لإيمائي. فالمقام في ضيافتهم عشرين عاماً مهلة كافية كي أتعلّم كم هؤلاء الأطياف فلاسفة في علم النفس. علم النفس التطبيقي المترجَم في مسلكهم العملي اليومي. فالسويسري أحرص إنسان عرفته خلال كل تجربتي مع مختلف الأمم، في

العلاقة مع الآخر. إنه في خشية إزعاج الآخر، يفوق العقاعق حذراً. حتى التحية يبخل بها الإنسان السويسري عندما يظنّ أنها يمكن أن تسبّب إزعاجاً، أو إذا أُلقيت في غير وقتها المناسب. ولهذا يضرب السويسري الأخماس في الأسداس، ويبذل جهداً مضنياً كي يخمّن نفسيّة الآخر، ومدى استعداده لتقبّل حضوره إلى جواره سواء بالتحية، أو بوقفة عابرة للإستفهام عن الأحوال. إنه موقفٌ وجودي، يستدعي قراءة عبقرية فطرية في تحليل نفسية الآخر، ونواياه الخيّرة نحو الأغيار، إلى الحدّ الذي يخنقون في قلوبهم حبّهم، خوفاً على الآخر من أنفسهم، ليقينهم بأن نداءً كالتحية كفيلٌ بأن يجرح إذا قيل في غير وقته، وعبارة الإستفسار البريء عن الحال إثمٌ في حال بلبلت في الإنسان البال. إنه نوعٌ من هندسة في خارطة الروح البشرية، تجعل الإنسان السويسري يتحيّن فرص التواصل مع محيطه الإنساني، كما يترصّد القنّاص الطرائد لئلّا يأتي بنأمة تخبر عن وجوده فيفزعها: يفزعها فيفقدها!

ولهذا تعلّمت أن أحترس في العلاقة مع هذه الأطياف الرائعة، فأتحاشى إزعاجها من حيث شئت أن أسعدها. فناموس الإنضباط الذي يعتنقه الإنسان السويسري لا يجيز الإستهزاء بأنفس رأس مال في الوجود وهو: **الوقت!**

17

بعد أيام هلّلت مريم في وجهي ببشارة.

قادتني إلى البستان حيث انتصب هيكل باقتنا المنكوبة منذ عام، يبيساً عارياً، مهجوراً، لتريني في عنق الساق، أسفل الأعواد الميّتة، لُعيعاً شقيّاً يخترق اللحاء، بلونٍ أخضرٍ بكرٍ، تفتّق عنه الجرم بعد عقم استغرق عاماً كاملاً، كأنّ قوةً غيبيّةً كامنة عميقاً في الساق هتكت هذا الرفات، لتخاطب الملأ بسلطان معجزة إسمها: الحبّ!

ففي ذلك اليوم شهدت بعثاً لكائنٍ حيّ في البدن الميّت. فالنّبتة التي نعتناها بالباقة لم تكن باقة في الواقع. كما لم تكن شجرة ورد كالتي شاهدناها وهي تطلّ من وراء حيطان بيوت حوض المتوسط كأنها تستطلع حركة المارّة في الشوارع. ولكن النبتة طينة استعارت خصالاً من الهويّتين. فهي باقة، لأنها أعراف مستقطعة من شجرة التأمت في حزمة. وهي أيضاً شجرة لأنها أرومة مدعومة بجذع، يتعالى لينتهي بأفرع، تتمدّد

هي الأخرى لتنتج فاكهة لا تجدي نفعاً، ولا تغني من جوع، ولكن العجب أن لا غنى لنا عنها، ربّما ليقينا الخفيّ بأننا لن نطيق أن نحيا، إذا عدم وجودها بيننا، كأنها تأبى إلّا أن تعلّمنا بأن نعيد النظر في مسلّماتنا إذا شئنا أن نجير الروح من دَنَس عالمٍ يحترف عبادة الغنيمة على حساب القيمة، ويستهتر بوديعة كالضمير، فلا يجد سوى الجمال، المترجم في حرف الوردة، ليكون وصيّها الوحيد، لأنه ذاكرة هذا الضمير: توليفة من صفائح هشّة، ملفوفة بفتنة، تتكاثف في تضاعيف حميمية، لتلفّق نسيجاً مستعاراً في اللون من نزيفٍ دامٍ، تتعانق فيه الفتلات بشغفٍ جنونيّ، مشفوعٍ بإحكامٍ محموم، كأنّها تتحامى ببعضها البعض خوفاً من هجمة ريح تختطفها، أو نزلة معشوقها الضوء الذي يتربّص بها دوماً، لا لشيء إلّا لأنّه الحميم الشرعي، للجوهر الغيبيّ الذي كانت له حجاباً، أنابها عنه لتكون له في دنيا الأنام رسولاً، لأنه مع هذا الطّيف المغترب، المدعو في رطانات الأمم روحاً، أيضاً سليل الأرومة التي اتخذت من البعد المفقود وطناً.. لأن الجمال وحده جديرٌ بالإنتماء إلى ملكوت الأبعاد القصوى!

18

بعث شجيرة الباقة من رمادها شجّعنا على اقتناء شجرة أخرى كانت لنا تاج جولاتنا في الحقول، لأنها كانت تعترض سبيلنا في الجبال أينما حللنا، ففتنتنا بسخائها وطيب فاكهتها، فقررنا أن نستنبتها كشتلة بالطبع، لا أن نستجلبها في حديقتها كشجرة.

لم أكن أخفي خوفي من عبادة الأشياء منذ عايشتُ أناساً مهووسين بجمع طوابع البريد، وآخرين مغرمين بإقتناء التّحف، أو مسكوكات العملة، أو ما شابه، فكان عزائي في كون هوسي الجديد، بعد هَوَس اقتناص الكتب بالطبع، تعلُّقٌ بطبيعة تلعب فيها الطبيعة دور البطولة، ليقيني بأن على الإنسان الذي ابتلته الأقدار بأهواء، ليس له أن يهوى شيئاً على الإطلاق باستثناء الكائنات الحية. ماذا؟ هل قلت الكائنات الحيّة؟ ألن يعني ذلك الركض لاقتناء الكلاب مثلاً، أو القطط؟ أليس من واجبي أن أصحّح فأقول: الكائنات النباتية الحيّة، لا الحيوانية؟ الواقع أنّي عشت تجربة اقتناء الحيوانات أيضاً. ولكن تلك كانت

حيوانات من طينة أخرى. من طينة **صحراوية**. ممّا يستنزل في حقّها أبعاداً قدسية في ظنّي، كما هو الحال مع الغزلان التي استمتعت في الطفولة بتربيتها، لا على سبيل الملكيّة كما أسلفت، ولكن احتفاءً بمعبود الأبعاد القصوى: الجمال! ولهذا السبب لم أنحرها أبداً، ولكنّي فرحتُ لها لأنها فرّت، وحزنت أيضاً خوفاً عليها من جشع السابلة. ولكن امتلاك كلاب، أو تربية قطط، هو ما لم يخطر لي يوماً على بال. والله وحدهُ يعلم كم بذلتُ من بسالة لأمنع مريم المهووسة منذ الطفولة بالقطط، من إدخال هذه الكائنات المريبة إلى البيت. فلم أملك إلّا أن أعبّر عن امتناني، بيني وبين نفسي، للسيدة «نيغيلي» جزاء قطّتها «فيلو» التي وجدت فيها مريم ضالّتها، فأجارتني من شبح قطط يمكن أن تقتحم خلوتي لتشاركني العيش في بيت هو بالنسبة لي دوماً جنّات عدن.

ما أدهشني دوماً هو سرّ إصرار الناس على استقدام حيوانات وحشية من حياتها البريّة، أو ترويضها كي تغترب معنا في حبوسٍ بعيداً عن وطنها الأمّ وهو: الطبيعة. وإلّا ما هو الكلب إن لم يكن ذئباً **مستأنساً**، كما يروقنا أن نعبّر، في حين الأنسب أن نسمّي الأسماء بأسمائها فنقول أنه : **مدجّن**؟ وما هو القطّ إن لم يكن فصيلة أسدٍ في حجمه المصغّر، نستدعيه ليحلّ بيننا ضيفاً؟

والمدهش أننا لا نكتفي بتدجين الذئب ليغدو كلباً، ولكننا نروّض هذا الأخير لنؤلّبه على سلالته الأمّ عندما ننصّبه حارساً لنا ولأنعامنا ضدّ ذئبٍ كانه بالأمس القريب. ولهذا كانت قناعتي دائماً أن ندع الوحوش تحيا في بريّتها، لأننا مدعوون بأنفسنا لأن ننضمّ إلى ركبها، لنستعيد حريّتنا بالحياة في ربوع طبيعتنا، ولو لم يستهوِنا هذا الحلم حقّاً لما اعتدنا أن نستقطع رموز الطبيعة من جنان منبتها، لنستزرعها داخل جدران بيوتنا، ونطلق عليها إسم البستان. بل كثيراً ما بلغ بنا الحنين لمحيطنا المفقود حدّاً استجلبنا فيه أشجاراً مصغّرةً (كما هو الحال مع بونساي) كي تشاركنا غرف نومنا.

فأشجار التفّاح هي مفخرة الألب والزينة التي تباهي بها المرتفعات الجبلية أحاضيض الأسافل، ومن الطبيعي أن تعترض سبيلنا في نزهتنا اليومية أينما حللنا. في الربيع تأسرنا بأزهارها المركّبة من البياض الناصع في البتلات التي تكاد تتلاشى من فرط شفافيّتها، معتمدةً على بؤرةٍ أقحوانيّةٍ تتفتّق في أجنحةٍ مزمومةٍ تهفو لاقتلاع أرومتها، توقاً للفرار بالبتلات التي تحتضنها، لتركزها رايةً في الفراغ المغسول بشموس ربيع الألب المخوّل في كل عام ببعث الكائنات من منافي بياتها الشتوي المميت.

في فصل الخريف تسحرنا أيضاً، ولكن بثمارها هذه

المرّة، سيّما في الحقول الواقعة شمال قريتنا المعلّقة في برزخ بين السماء والأرض، فنسلك الدروب الزراعية النحيلة لتطالعنا أشجار التفّاح على جانبَي الطريق، مثقلةً بثمارها الغيبيّة وإلّا لما صارت في أدبيّات الأمم قريناً محمّلاً بفحوى فلسفية من حيث هو إغواء. هذه الأشجار تطرح أثقالها الفاتنة أرضاً لتكون في متناول السابلة. وكثيراً ما لاقانا جارٌ لنا أمريكي الجنسية حاملاً نصيباً سخيّاً من هذه الثمار عندما كنّا نرابط على شعفة تطلّ على الحزام الشمالي من موطننا، حيث يتدفّق النهر الذي يخرق «اشتيفسبورغ» ليشطرها نصفين، قبل أن يصبّ في بحيرة «تون» في الأسفل. ولا أعرف لماذا كنّا نتأفّف من مدّ اليد والتقاط مثل هذه العطايا المجانيّة. ربّما بسبب الإشمئزاز من لقية المجّان: المجّان الذي نستطيع أن نعتنقه ديناً في حال استمرّ بنا المقام في بريّتنا الصحراوية، ولكنه في عرف الإستقرار استباحة آثمة في حقّ ملكيّة هي دين أهل العمران. والعبث بقوانين أمم ننزلها كأضياف منكر آليت على نفسي أن أتحاشاه إلى الأبد. ولو لم أعتنق حرف هذا الناموس في عبوري لأوطانٍ مسكونةٍ بمختلف الأجناس، لما نجوت من أخطار كثيرة كانت ستلحقني حتماً فيما لو خالفت هذا الناموس.

ربّما لهذا السبب آليت على نفسي أن أحقق حلماً آخر إلى

جانب الفوز بالباقة الملفّقة من جرم شجرة ورأس باقة، كأنها في تكوينها حورية مستعارة من روح الأساطير: حلم فحواه ليست في امتلاك شجرة تفاح، ولكن تربية شجرة تفاح. استزراع شجرة تفّاح من شتلة تفّاح. أي اقتناء جنين منتمٍ لملّة التفّاح ورعايته ليترعرع في الكنف حتى يشبّ عن الطوق. إنه محاولة لإرواء الظمأ القديم إلى الجذور الذي سكنني دوماً منذ انقطعت في قلبي جذور انتمائي لفردوسي الأنبل من كل فردوس (الصحراء)، فقررت أن أستعير جذوراً في مكانٍ مّا، في عالم اغترابي الأبدي، لأن المقام في ربوع الألب السويسري، بين الفلّاحين، فرصتي الأخيرة لاسترداد حلمي الضائع، علّ استنبات شجرة تفاح يعيد لي اعتباري، ويؤهّلني أخيراً لأن أحظى بهوية يعترف لي بها أهل العمران، رغم اشمئزازي من مبدأ المواطنة المخفي في كلمة Bürger الألمانيّة؛ لأن.. التوق إلى الحرية الذي يجعلني أجاور أعشاش الصقور، وأصادق هذه الجوارح الباسلة، معلّقاً بين السماء والأرض، مصير أليم جدّاً عندما يدوم طويلاً، عندما يغدو قدراً، وجذور الـ Bürger وحدها تستطيع أن تعيدني إلى الصواب، فأقبل الركون إلى المكان!

19

من سوق البستنة في «شومبول» استجلبنا عود تفّاح قيل لنا أنه قابل لأن يستقيم في شجرة إذا أحسنّا له الرعاية. ولكن شكوكاً لاحقتني بشأنه برغم جهلي الكامل بعلم البستنة، لأن أعواد شجرة الزيتون وحدها، حسب علمي المتواضع، تملك موهبة أن تتحوّل شجرة من عود مستقطع، وليس من شتلة ذات جذور. تذكرت في ذلك اليوم كم عذّبني جهلي بمملكة النّبات في بداية عهدي بموسكو، عندما كنت أحطّم رأسي على الجدران كي أفكّك شفرة نباتات الصحراء الكبرى، لأجد لها أسماء مرادفة بالعربية أثناء معاندتي لنصوص ذلك الزمن كـ«الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة» مثالاً، تماماً كما عذّبني إلى هذا اليوم جهلي بأسماء أنواع الزهور حيث اكتشفت أخيراً أن الزهرة الواحدة تستطيع أن تمتلك مائة إسم كاشتقاق من الزهرة الأمّ. فكم العمر مغامرة محدودة إذا كانت لا تكفي للإلمام بكلّ أجناس الأزهار، فكيف إذا طمعنا في اكتشاف سرّ الإغواء الذي تستدرجنا به الأزهار؟

ولكن لا مفرّ لنا، في تلك المرة، من أن نعمل بحرف الوصيّة، فأفسحنا للفرع مكاناً في عشب البستان، يقع في فسحة أسفل عرش باقتنا المجيدة. هناك احتفرنا للفرع عمقاً، واستودعناه تراباً، قابلاً لأن ينقلب شرَكاً، يستفزّ في كيان العود جذوراً، هي قدر كل كائنٍ شاء يوماً أن يستعيد وطناً!

فالحرمان من الطين هو علّة آلامي البدنية والروحية في الأعوام الأخيرة. العلّة في الإنسلاخ عن طبيعةٍ هي لنا أمٌّ رؤوف، حتى أنها لا تستعيدنا من تيهنا، لتستودعنا بطنها إلّا شفقةً علينا من آلام الوجود. الآلام التي حيّرت الأطباء، وبلغت حدودها القصوى في الثمانينات، إبّان تجربة بولندا المشئومة، فطفتُ العالم طلباً لترياق، ولكن بلا جدوى، لأن ما نبحث عنه بعيداً عادةً، هو في الواقع أقرب لنا من حبل الوريد، والطبيعة وحدها أقرب لنا من حبل الوريد، وبرغم ذلك نتفنّن في الإحتيال كي نفرّ منها في مرحلة البحث عن ماهيّتنا، فلا نستيقظ من غيبوبتنا إلّا بعد فوات الأوان. ولذا، فعودة الإبن الضالّ إلى أحضان الأمّ المكلومة، دوماً تضميدٌ لجراح نزيفٍ إستغرق أعواماً. هي تجربة توبة، بقدر ما هي ترياق استشفاء. ودفن النبتة، المروية بهاجس الحنين إلى الأرض، في بطن الأرض، بمثل تلك اللهفة، ليس مجرد توبة، ولكنه ممارسة لطقس استجداء غفران.

العودة إلى حضن أمّ الأمّهات يجبرني أن أعبّر عن امتناني للعناية الإلهية التي سخّرت لي سويسرا وطناً نبيلاً عاشقاً للطبيعة مكّنني يوماً من استعادة هويّتي المفقودة، لأن هذا الوطن المعلّق في خواصر الألب وحده، بحكم موقعه وثقافته، إستطاع من دون كل الأوطان أن يحوّل أريافه امتداداً لطبيعته الثريّة، ويحوّل مدنه أيضاً امتداداً لأريافه، ليغدو الإنسان فيه كائناً طبيعياً أيضاً، إلى جانب خصاله ككائنٍ ثقافي.

والمفارقة أن يجود على عدوس السُّرَى بشبر الأرض، المخصص لاستنبات وردة تعيد له الجذر الضائع، ذلك البلد الأكثر شحّاً في كل أوروبا، إذا تعلّق الأمر بمساحة الأرض، كما هو الحال مع سويسرا، في حين بخلت عليه بهذا الشبر النفيس إمبراطورية تهيمن على قارّتين كما هو الحال مع روسيا، أو بولونيا التي تستقطع أيضاً أراضٍ من استونيا وألمانيا والنمسا والمجر بدون **وجه حقّ**، لأنها مُنحت لها بالمجّان، بمشيئة المنتصر السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، ولم تكن القارّة الصحراوية الكبرى لتبخل على العدوس **بالشبر المجيد**، لو لم تتحوّل فيما تلا من أعوامٍ، أرضاً مغتصبة قسّمها دخيلٌ آخر غاشم، هو فرنسا، إلى أربعة حصص، كشاة الأضحية تماماً، ليقدّمها لعملاء الأمس قرباناً بالمجّان!

20

عنايتنا بعود التفّاح المغترب عن شجرته الأمّ أثمرت.

لم نكتفِ بأن نجود عليه بالمياه، ولكننا كنا نخرج في نزهتنا اليومية لارتياد الحقول فنأتي للنبتة بيبيس رَوَث الأبقار لندسّه في حفرة الجذور كل مرة، فإذا بها تتحفنا بمفاجأة في أحد الأيام عندما اكتشفنا كيف أزهرت!

أسعدنا ان نراها تزهر، لأننا أحسسنا بأنها تزهر **فينا**، والكنوز الناصعة التي تفتّقت في جرمها الهزيل، المثير للشفقة من فرط نحوله وعزلته ويتمه، لم تتفتّق فيها، ولكنها شقّت لنفسها سبيلاً في **باطنينا**، لتجد طريقها إلى قلبَينا كي تقول كلمتها **فينا**، اعترافاً منها بإحسانٍ على أنفس عملة مستخدمة في صفقة الوجود، مترجمةً في حرف **الحبّ** الذي لم نبخل به عليها طوال الأمد الذي استغرقه المخاض.

لقد أينع العود الشقيّ الذي استهنّا به يوم استجلبناه من منفاه في مستودع المشاتل في سوق البستنة بقرية «شمبول»،

وتحلّت فيه الأغصان بشعاع الشمس، روحاً شعريةً هيهات أن تتناسب مع قوامها البائس. ويبدو أن سلطان الإغواء الذي جلب لها القطة «فيلو» المهووسة بالجمال فتبتّلت في حضرتها بخشوع، هو ذاته السلطان الذي استدرج لها تلك الكائنات اللئيمة التي تلبّستها في حملة ما لبثت أن أجهضت أجنّتها، لنشهد كيف أطاحت جيوش مدرّبة من ذرّ النمل بالفصوص، دون أن تُجدي العقاقير التي استجلبتها مريم من الأسواق لاستخدامها كترياق لاجتناب مثل ذلك المصاب. ولا نعرف كيف استطاع أن يفلت من هذا القصاص ذاك الفصّ المدهش الذي لم يلبث أن مهّد النجاة للنواة الوحيدة التي استوت، مع حلول الصيف، في فاكهة تفّاح!

حدث ذلك بعد أن يئسنا في حربنا ضدّ جيوش الغوغاء، فتوقّفنا عن المقاومة، وسلّمنا للعدو زمام الأمر، ليفعل بالغنيمة ما شاء.

يفعل بالغنيمة ما يشاء؟

كلّا، كلّا! يفعل ما يشاء ليس بمجرّد غنيمة، ولكن بالحُجّة التي تستوقفنا في حمّى لهاثنا وراء سراب باطل أباطيلنا، لتنبّئنا بصوتٍ ينطلق من باطننا، مشفوعاً بنداء دَمِنَا، ليُسمعنا نبوءةً تقول: «انتظر أيها الشقيّ، كي أريك ما لم تره عين، ولم تسمعه أُذن، ولم يخطر ببال بشر!».

إنها كلمة الفصّ الفذّ، الناصع البياض، كأنه يعترف بهويّته ككفن، في محنته وهو يتحوّل فريسةً في أنياب الغوغاء، فيهتف فيه الجمال، عندما يهوي ليستعيد سلطانه الذي لا يُقهر، ولا يُدرك، حتى وهو يقبل بقدرٍ هو في نظرنا: قربان!

وما الثمرة اليتيمة التي تخلّفت عن غزوة الإنتقام سوى الشهادة على هشاشة الجمال، وتوقه الفجيع إلى الفناء، كلّما تمرّد على ناموس العهد، وانتزع لنفسه حضوراً في المكان.

21

كانت فصوص الزهور، في بداية عهدنا بها، نبوءةً لا تُصدّق تجسّدت في صدر البستان، كأنها هبطت للتوّ من رحاب السماء. وها هي روح البشارة تموت فيها، فلا يبقى من المفاجأة سوى الساق العارية التي تدلّت منها الثمرة الوحيدة، الناجية من بطش العدوّ في هجمته الغادرة.

خاب أملنا، فأدرنا ظهورنا للشجرة الجريحة، ويمّمنا صوب باقتنا المجيدة، كأننا نعبّر لها، باهتمامنا، على امتناننا لأنها لم تخيّب ظنّنا بها، دون أن يفوتنا أن نناجي في طريقنا شجيرات «بونساي» التي تتشمّس كل صباح في قلب البستان، حتى إذا عبست أجواء الألب، المتذبذبة في مزاجها عادةً، هرعنا للفرار بها إلى جوف البيت خوفاً عليها من شرور البَرَد الذي نال منها يوماً، ليحفر في أوراقها جراحاً استمرّت تنزف إلى حين قريب. ثمّ..

ثم انقشع الصيف كأنه الطيف، ليقبل في الألب مريده

الخريف مبكّراً كعادته دوماً، فما كان من الأشجار إلّا أن استنزلت في سيمائها رايات الحداد، وهي تلوّح في وجه الريح بأوراقها المشذّبة على هيأة قلب، المجلّلة بنزيف الدمّ.

في تلك المرحلة كانت ثمرة التفّاحة قد استوت في جرمٍ مغرٍ، أكبر حجماً ممّا توقّعنا، ولكنها لم تشترِ حسن ظنّنا، ربّما بسبب خيبة أملنا في منتوجٍ كم كان سيكون سخيّاً فيما لو أفلحت الشجرة في عمل ما يمكن أن يجيرها من غزوة ذرّ النمل، لتحتفظ لنا بأجنّتها إجمالاً. وها نحن نهمل الشجرة بعد فشلنا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لتبقى هذه الثمرة المعلّقة في الغصن الهزيل، المشيّد على الساق النحيلة، برهاناً على هزيمتنا، فاستصغرنا العطيّة، وأهملنا الشجرة الشقيّة، كأننا نحمّلها وزر فشلنا في مشروعنا الذي علّقنا عليه الآمال، فإذا بها تخذلنا، فقررنا أن ننتقم منها، كأنّها هي وحدها المسئولة عن ما حلّ بها!

كان ذلك إنكاراً للإحسان من جانبنا، لأننا، ككل خلق الله في هذا الوجود، نسينا في لحظة تلك السعادة التي وهبتها لنا يوم فاجأتنا بفصوص العجب التي منّت بها علينا، كأنها استعارتها من مجاهل الغيوب، خصّيصاً كي تبهرنا وتجلب نصيباً من فرح إلى قلوبنا التي تجلّدت بفعل حضورها في جليد

الألب طويلاً. وكان يجب أن نقنع بما نلنا، ونكتفي بالهبة الألوهية إحساناً، ولكن هيهات! لأننا لن نكون عندها طينةً تتباهى بالإنتماء إلى ملّة البشر، ولذا طالبنا بالمزيد، دون أن نسأل أنفسنا: أيّة ماهيّة يمكن أن تقارن بجلالة الجمال الذي طالعنا في ذلك اليوم المجيد بسحنته الخارقة، فلم نملك إلّا أن نسجد له بقلوبنا قبل أجسادنا؟

طالبنا بالمزيد، لأن الجشع استيقظ فينا، لأننا نسينا أن أعدى أعداء الجمال هو: **النفع!** ولم نكن لنخسر الصفقة مع الإيماء المعظّم تالياً إلّا لجهلنا بحقيقة النفع الذي لا يدخل طرفاً في عهد، إلّا وينفي فيه المثال. والدليل؟ الدليل نلناه بالأمس مجسّداً في سيرة الباقة. الباقة التي بعثتها روح الزهد من العدم، لتنتصب في قمم الألب باستعلاء مَن كسب الرهان في الحرب مع الموت، لا لشيء إلّا لأنه عرف كيف يستبعد من الحسبة مبدأ الربح والخسارة البغيض الذي يعتنقه النفع ديناً. ولهذا كوفئنا في شأن استنزال الغنيمة في أغصان التفاحة البائسة، لأننا استهنّا بفصوص البُعد المفقود التي وهبتها لنا الشجرة بالمجّان في زهور مطلع الربيع. وها نحن نستهين حتى باللقمة الذهبية التي جادت بها الأغصان إمعاناً في السخاء، لا عن استحقاق، لنجد في أنفسنا ما يكفي من

استهانة بالإحسان كي نشيح عنها بوجوهنا استصغاراً، دون أن نتخيّل بالطبع أن تتخفّى بشارة في هذه الثمرة التي استهترنا بها: بشارة لا تقلّ قيمة في عمق الفحوى عن دلالة الدرس المستعار من تجربة الباقة التي انبعثت من عدم.

22

مفاصل الفصول في الشمال إجمالاً، في عالم الألب تحديداً، أسوأ مناخ في كل العام. وعلّ المفصل في فصل الخريف هو الأسوأ من كل المفاصل في الفصول الأخرى، فلا يدهشنا أن نسمع من يصف هذا المفصل بمسقط رأس السويداء من بين كل مفاصل الفصول. ورياحه الهوجاء المحمّلة بلطخات الثلج، في طور البلل، هي بمثابة ريح النحوس التي تهبّ بين كل ريحين، فيصفها القدماء بالنّكباء لهذا السبب. وهاهي تجتاح الجبال في ذلك العام لتُسقط ما تبقّى من أوراق تستميت في تشبّثها بالأشجار، مقنّعة بعتمات الضباب حيناً، ومتنكّرةً حيناً آخر بظلمات نهارات تحوّلت بحكم ناموس الفصول، إلى ليل يتواصل في ليل، تهشّ الصقيع في قطرات المطر، أو في البلل الذي يتجلّد ليتحوّل ثلجاً بفعل الإنخفاض المستمرّ في درجات الحرارة. في هذه الأجواء الكئيبة تبدأ الطبيعة رحلة إغترابها. إغترابٌ موجع،

لأن الطبيعة تتنكّر لطبيعتها، لتسفر عن طبيعة عالمٍ سفليّ أشرّ ما فيه هو: **غياب الجمال**.

فبقدر ما يفتننا مطلع الخريف وهو يتفنّن في تلوين أوراق الشجر، بقدر ما تخذلنا مشيئة الخريف وهي تجرّد الطبيعة من أثوابها كي تدفع بها إلى أكفان الشتاء عاريةً، كأنها تزفّها إلى مخدع العدم. فالخريف داهية في استدراجنا بالجمال، كي يوقفنا شهوداً على **غياب** الجمال، كأنه يأبى إلّا أن يبرهن لنا كم الجمال طيف عابر، لأنه كشرر الرؤيا المعادية بطبيعتها لواقع تهيمن عليه المِلكية، تومض في وجوهنا خطفاً لتوقظنا من غيبوبتنا، علّنا ننتبه لوجود الحقيقة فينا!

في تلك الأثناء كانت التفّاحة قد استوت في النضج، وازدادت امتلاءً في الحجم، وأكثر ما أدهشنا هو استهانتها بقانون الطبيعة الذي أطاح بكل شيء في محيطنا، بما في ذلك ثمار الفواكه في أشجار السهول الأقدم عهداً، والأصلب جذوعاً، والأقوى أغصاناً، بالمقارنة مع عرفٍ مستقطعٍ من شجرة تفّاح، يبدو مجرّد عود مضحك استنبته الصِّبْيَة في الأرض من باب التسلية، ثم ألصقوا به تفاحةً إصطناعية إمعاناً في اللهو!

كنّا نلمحها في دخولنا وخروجنا دون أن نكترث بمصيرها طوال أكتوبر ونوفمبر، ونتوقّع سقوط الثمرة ونهاية المهزلة كل

يوم، فنرثي لها ونحن نرى الثلوج تغمرها في كرّها وفرّها، دون أن نفعل شيئاً من أجلها، كأنها هي المذنبة في النكبة التي حلّت بها.

استمرّت صامدة حتى مشارف أعياد الميلاد في ديسمبر عندما هيمن كفن الثلوج ليُحكم سيطرته على كل الواقع البيئي، كأنها تتحدّانا، أو بالأصحّ، تتحدّى ناموس الطبيعة بأسره، فلم أجد مفرّاً من الخوض في طبقة الثلج الكثيف لأصل إليها: لم تكن الثمرة وحدها المغمورة بالثلج، ولكن العود كلّه كان قد ابتلعه الثلج النّهم، ولكنه لم يستسلم للوزر الثقيل فيهوي، كما هوت شجرة الصنوبر بالجوار بفعل ثقل الثلج منذ أمد.

اقتطفت التفاحة بلا مبالاة مَن يؤدّي واجباً، لا بشغف من يتلقّى من المعبود هبةً كما يجب أن يحدث، وذهبت بها إلى البيت لأتركها على مائدة الطعام أياماً، قبل أن أتنازل مرة فأتناول سكّين فاكهة لتقشيرها وأدعو مريم لاستطعام الثمرة التي سفحت العرق يوماً من أجلها. فماذا كانت النتيجة؟

النتيجة هو ما لا تستطيع أن ترويه اللغة. كل ما يمكن أن يوصف هو الوميض الذي شعّ في عينيّ مريم بعد أن استطعمت الفاكهة، لأبادلها الإيماء ذاته، في وقتٍ أصيب فيه لسانينا بالشلل. لذنا بالصمت طوال طقس استطعام طعم

الطعوم الأسطوري. وتواصل الصمت حتى بعد الإنتهاء من تلك الصلاة التي لم يُكتب لنا أن ننساها، فحملناها معنا في فرارنا التالي إلى فردوس الأسلاف المفقود في رحاب إيبيريا، وظللنا نستعيده كغنيمة زمن ضاع، مجلّلة بذكرى فردوسٍ ضاع، وكل ما استطعنا أن نعبّر به عن وَجْدنا في ذلك اليوم هو اقتناعنا بصواب موقف آدم في الخروج من الجنّة إذا كان المقابل هو طعم هذا الطعوم الخرافي الذي لا يُقاوم. وقد ظللنا نحلم بالثمرة، ونضع الخطط لاسترضاء شجرتنا الأسطورية مع حلول الربيع القادم، علّنا نكفّر عن خطايانا في حقّها. ولكن.. هيهات!

لقد حاولنا في ربيع ذلك العام، وفي ربيع العام الذي تلا، على مدى سنوات، في محاولات مستميتة لنَيْل اللقية المأمولة، ولكن بلا جدوى.

لقد استصدرت الشجرة في حقّنا حكم القصاص النهائيّ، جزاء كفرنا بنعمتها في الماضي.

23

أليس خرافةً أن ننصّب المحيط البيئي الذي نسكنه سبباً في غياب قدس أقداسٍ هو الجمال من حياتنا، في وقتٍ آمنّا فيه بأن وطننا الحقيقي ليس الوطن الذي نسكنه، ولكنه الوطن الذي يسكننا، لأن الوطن الذي نسكنه مكانٌ، أمّا الوطن الذي يسكننا ففردوسٌ، مما يعني أننا وحدنا المذنبون في إفلاسنا، لأننا تنكّرنا للوطن الذي نسكنه، فتنكّر لنا الوطن الذي يسكننا، لأنهما في الحقيقة ما هما سوى حميمين في جدلهما، أحدهما إنعكاسٌ لثانيهما؟

فاغتراب الجمال الذي يسكننا هو ما أورثنا نزعة التسامح مع الشرور المعادية بطبيعتها لأحجية البعد المفقود التي سمحنا لأنفسنا بأن نخلع عليها هذا اللقب المثقل بالإعجاز، كما هو الحال مع: **الجمال!**

فما لم نتخيّله هو أن تتحوّل لا مبالاتنا بواقعنا البيئي، الثريّ بالجمال، إلى زللٍ أخلاقيّ أمات فينا روح الشعر،

وبالتالي الحبّ، لينتهي بنا المطاف، بمشيئة هذا الزلل، إلى أن نتساهل مع القبح، لنجد أنفسنا ضحايا لا تملك إلّا أن تهادن كل الآثام المنتَجَة بهذا الحرف الشرير، لتنقلب دنيانا **قرباناً**، بعد أن كانت بعبادة الجمال **صلاةً!**

سالو (شمال شرق الجزيرة الإيبيريّة)

3 سبتمبر 2017

مؤلّفات إبراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البري (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماوية (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلّاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسِرُّ بأمري لخلّاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلبال، 1999م.

32 ـ سأسِرُّ بأمري لخلّاني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000م.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أوطان الأرباب 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أوطان الأرباب 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5.

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون) 2004م.

52 ـ مراثي أوليس (رواية) 2004م.

53 ـ صحف إبراهيم (متون) 2005م.

54 ـ المحدود واللامحدود (متون) 2002م.

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج 6، 2005م.

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005م.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأملت الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج 3، (موسوعة البيان) ج 7، 2006م.

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكان نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

62 ـ يعقوب وأبناؤه (رواية) 2007م.

63 ـ قابيل.. أين أخوك هابيل؟! (رواية) 2007م.

64 ـ الوَرَم (رواية) 2008م.

65 ـ يوسف بلا إخوته (رواية) 2008م.

66 ـ من أنت أيها الملاك؟ (رواية) 2009م.

67 ـ رسول السماوات السبع (رواية) 2009م.

68 ـ جنوب غرب طروادة جنوب شرق قرطاجة (رواية) 2011م.

69 ـ فرسان الأحلام القتيلة (رواية) 2012م.

70 ـ ناقةُ اللّه (رواية) 2015م.

71 ـ معزوفة الأوتار المزمومة (نصوص) 2016م.

72 ـ أهل السُّرَى (نصوص) 2016م.

73 ـ موسم تقاسم الأرض (رواية) 2017م.

74 ـ سِلْفيُوم (رواية) 2017م.

75 ـ رُوح البُعْد المفقود (سيرة رؤيوية) 2018م.

مؤلّفات إبراهيم الكوني النظرية

76 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

77 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

78 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

79 ـ وطني صحراءٌ كُبرى (متون) 2010م.

80 ـ ثوبٌ لم يُدنَّس بسَمِّ الخِياط (متون) 2012م.

81 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء أوّل 2012م.

82 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثانٍ 2013م.

83 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء ثالث 2014م.

84 ـ عَدُوسُ السُّرى (المذكّرات) جزء رابع 2015م.

إبراهيم الكوني

روح البُعد المفقود

«... مريم الآن بدأت تقضي جلّ الوقت مع جاراتها في البستان للاعتناء بباقة الورد المرفوعة فوق الساق اللميسة بدعوى وجودها في طور نقاهة بُعَيد اجتثاثها من منفاها في الوعاء، واستدراجها للمقام في البرّ الوحيد الذي ينعدم فيه وجود سدود يمكن أن تعترض مسير الجذور: التراب!

لم تبخل مريم لا بالوقت، ولا بصنوف العناية على أميرة النبات المدلّلة ذات الهوية المزدوجة، بل ربّما نالت فتنتها بسبب هذا الازدواج في الهوية. فهي ليست شجرة، وليست مجرد باقة. ساق شجرة تنتهي في القمة بباقة إكليل ورد. ليس إكليلاً ملفّقاً من أعراف وردٍ مقتطفة من جنّات بستان، ولكنه إكليلٌ مشدودٌ إلى ساق، والساق مكبّلةٌ بجذور!»

مكتبة نوميديا 89

Telegram@ Numidia_Library

إبراهيم الكوني: روح البعد المفقود

ISBN: 978-614-8020-48-9

9 786148 020489

دار سؤال

www.darsoual.com

dar_soual@outlook.com

@darsoual2014

Dar Soual